كتابي

الكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالمية

١٢ قرشا



حلمي مراد

وحة فوتوغرافية للمصور "جان"

كتابي

كتاب شهري لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره: حلمي مراد

الكتاب التاسع والثمانون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والأعداد السابقة : التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة .

تليفون : ٥٩٥٥٦

تنويه .. واعتذار

نأسف لوقوع خطأ فنى (أثناء الطباعة) فى صفحة ٧٧ من هذا العدد ، كان نتيجته وقوع خلل فى وضع السطر الذى به اسم المترجم ((**الدكتور أنور لوقا**)) ، فظهر السطر فى أعلى الصفحة مقلوبا ، وسقط السطر التالى له ، وكان نصه ((**مدرس الأدب الفرنسى بكلية آداب جامعة عين شمس**)) .. فنأسف لهذا الخطأ .

صورة الغلاف

يسر « كتابى » أن يقدم لهواة الفن من قرائه اللوحة الفوتوغرافية الرائعة التى تحلى غلاف هذا العدد، والتى يتجلى فيها لون جديد من فن التصوير الفوتوغرافى ، وهى من تصوير الفنان « جان » ، ٢٣ شارع سليمان باشا بالقاهرة .

محتويات الكتاب

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ثمانية وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ثلاثة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

رأيت وسمعت لك

في اسطنبول

للمحرر



صروح الماضى .. ومعالم الحاضر

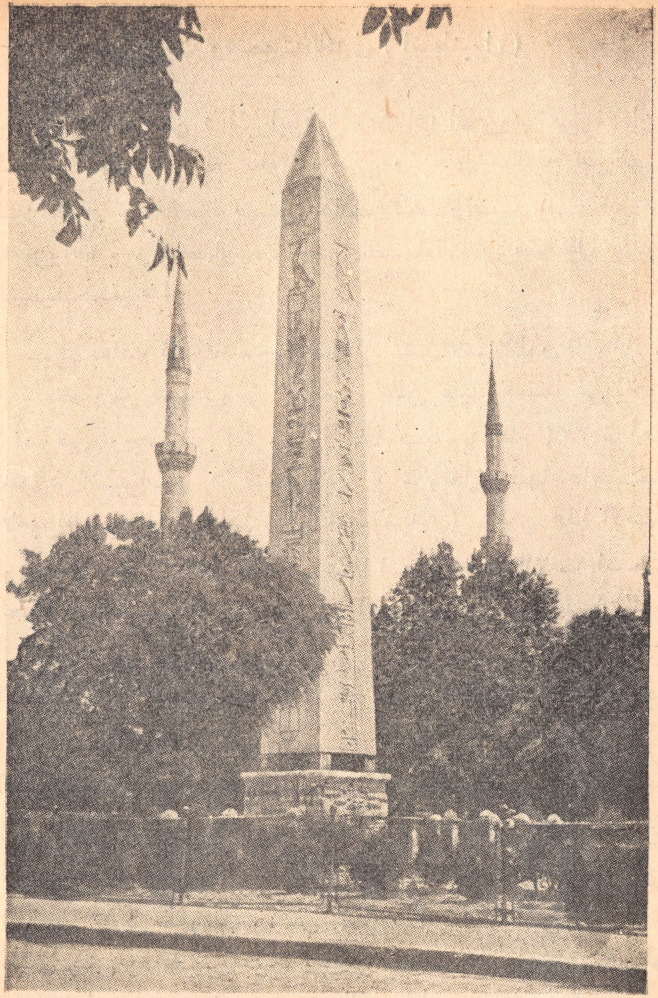
عزيزى القارىء :

فى الفصل السابق حدثتك عن حياة « الحريم » فى قصور اسطنبول، فى عهود سلاطين تركيا من آل عثمان، بعد أن زرنا معا فى الفصل الأسبق أجنحة الحريم فى قصر « سراجوغلو » المشهور ..

واليوم ، قبل أن أختتم هذه السلسلة من الفصول عن مشاهداتى فى المدينة التركية العريقة ، أمهد لهذا الفصل بتلخيص سريع خاطف لتاريخ اسطنبول منذ كانت تدعى (بيزنطة) ، ثم (القسطنطينية) ، حتى أعلن مصطفى كمال « أتاتورك » الجمهورية قرب نهاية الربع الأول من هذا القرن ، ثم أسس عاصمتها الجديدة (أنقرة) ونقل اليها مركز الحكومة من العاصمة القديمة العريقة : اسطنبول .

نشأة (بيزنطة) .. ثم القسطنطينية

• **أسست** مدينة (بيزنطة) — عام ٦٥٨ قبل الميلاد — قبائل ال «ميجاران» المسالمة ، التى أطلقت عليها اسم زعيمها « بيزاس » . ولم تلبث عشائر ال « أريان » أن انضمت الى أولئك المعمرين الأوائل ، وحولت المدينة الى ميناء



مسلة هليوبوليس المصرية (١٥٤٧ - ق ٠ م) ، شامخة
فى ميدان الملعب البيزنطى باسطنبول ، والى جانبيها
اثنتان من مآذن الجامع الازرق ٠

تجارى هام . لكن « البرابرة » وعشاق الحروب من سكان المناطق المجاورة ، لم يظهروا أدنى رغبة فى مهادنة جيرانهم البيزنطيين ، فراحوا يشنون عليهم الغارات ، والمذابح ، والغزوات ، والحصار .. حتى تضاءلت بيزنطة الى بلدة اقليمية صغيرة !

.. ثم بعثت المدينة من جديد على يدى الامبراطور الرومانى « سبتميوس سيفيروس » الذى أطلق عليها اسما غريبا هو (انتونين أوجستس) ! .. وفى ١٨ سبتمبر عام ٣٢٤ غزاها بدوره الامبراطور « قسطنطين » ، ونقل اليها عاصمة الامبراطورية ثم سماها (روما الجديدة) . لكن هذا الاسم لم يلصق بها ، فأطلق عليها - فى ١١ مايو عام ٣٣٠ - اسمها الخالد : (القسطنطينية) .. وراح الامبراطور يزينها وينقل اليها الكنوز الفاخرة ، من روما وبلاد اليونان .. فلما مات الامبراطور « تيودوسيوس » عام ٣٩٥ قسمت الامبراطورية الرومانية المتداعية الى قسمين : الامبراطورية الرومانية الغربية ، وعاصمتها روما .. ثم الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وعاصمتها القسطنطينية . وكانت الامبراطورية الشرقية من نصيب « اركاديوس » ، احد ابناء الامبراطور الراحل تيودوسيوس .. ثم خلفه « تيودوسيوس الثانى » ، الذى عنى بعاصمته فزاد رقعتها اتساعا واهتم بتجميلها وتزيينها . وفى عهده سميت الامبراطورية الشرقية باسم : « البيزنطية » .



شارع الاستقلال ، قلب اسطنبول النابض وأكثر
شوارعها ازدحاما بالمارة والحوانيت والملاهي .

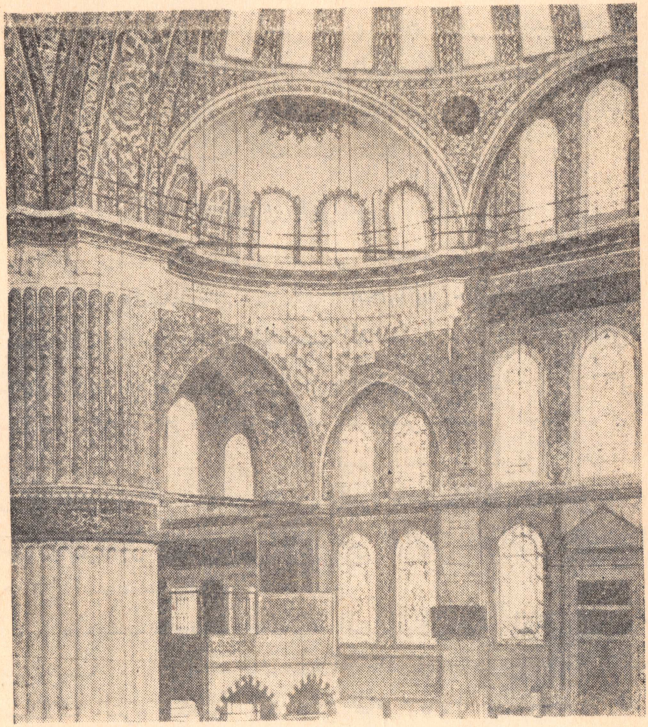
اصلاحات « جستنيان »

• ثم تتابعت على الامبراطورية البيزنطية الكوارث ، والثورات ، والتخريب ، والفضائح . حتى تولى «جستنيان» الحكم . ورغم انحدار هذا الامبراطور من أصل قروى متواضع ، فانه أضفى على (بيزنطة) رواء وبهاء لا نظير لهما .. وصد عدة محاولات لغزوها .. ونظم قوانين العدالة والادارة تنظيما جديدا .. وشيد القصور والكنائس، التى من أشهرها كنيسة (أيا صوفيا) المشهورة التى تعتبر من عجائب اسطنبول السبع ، (وقد حدثتك عنها فى عدد سابق) .

.. على ان انتكاسة جديدة لم تلبث أن أصابت الامبراطورية، فقدتلت ذلك عدة قرون من الحروب، والحصار، والهجمات ، والفوضى .. فضلا عن الصراع الدينى، الذى نشأ عن الدعوة الى الفصل بين الكنائس .

الحرب الصليبية الرابعة

• وفى عام ٨٦٧ اغتصب العرش « بازيل » الاول ـ المقدونى ـ وأسس سلالة منحت بيزنطة حقبة ثالثة من المجد والرخاء . لكن انتكاسة أخرى كانت فى الطريق .. فان التنافس الدينى بين اللاتين والاغريق ، والشقاق الذى مزقهم (عام ١٠٥٤) ، ثم الخلافات الداخلية الطويلة بين الجاليات اللاتينية ـ التى ضاعف خصومهم من حدتها ـ فضلا عن النهب الدموى للأحياء التى كانوا يقطنون فيها (فى عام ١١٨٠)



مسجد السلطان أحمد (الجامع الازرق) كما يرى من الداخل .

.. كل ذلك هيأ القسطنطينية لأن تكون هدفا للحرب الصليبية الرابعة .. فسقطت المدينة فى أيدى غزاتها ، (يوم

١٢ أبريل عام ١٢٠٤) ، وأعلن ضمها كجزء من الامبراطورية اللاتينية . وفى يوم ١٦ مايو من العام نفسه تولى مندوب البابا تتويج « بولدوين الاول » امبراطورا جديدا ، وأقيم حفل التتويج فى كنيسة القديسة صوفيا .

الغزو اليونانى

• **لكن** ارساء السلطان اللاتينى لم يتم على أساس سليم .. فلم يلبث الاعداء ان استأنفوا هجماتهم ، فى الوقت الذى تزايدت فيه الخلافات والمتاعب الداخلية .. ثم ان اباطرة اللاتين كانت مواردهم المالية والعسكرية محدودة ، فراحوا يفقدون الاقليم جزءا بعد جزء .. حتى حلت الليلة — من ليالى عام ١٢٦١ — التى سلم فيها الجنود المرتزقة مدينة القسطنطينية الى جنود الامبراطور « ميخائيل الثامن » ، الذى كان امبراطورا على اقليم من اقاليم اليونان ، فدخلها يوم ١٥ اغسطس ١٢٦١ .

.. واستمرت تلك السلالة اليونانية تحكم الامبراطورية البيزنطية ، (وكانت السلالة الثانية عشرة فى ترتيب السلالات التى حكمتها) ، حتى عام ١٤٥٣ .. وخلال تلك الحقبة ، لم تكف السلطات اللاتينية — فى (فنيسيا) و (جنوا) و (بيزا) — عن مناوأة الاباطرة اليونان واثارة المتاعب فى طريقهم .. ومن ناحية أخرى كان سلاطين الاتراك يشنون الحرب تلو الحرب عليهم ، فيضمون الاقليم تلو الاقاليم ، حتى لم يبق لهم من الامبراطورية سوى مدينة القسطنطينية وحدها !



البسفور كما يرى من الضفة الأسيوية .

نشأة الامبراطورية العثمانية

• **وحتى** هذا الرمز الوحيد الباقى انتزع من أيديهم يوم اقتحم محمد الثانى (الفاتح) المدينة ، يوم ٢٩ مايو عام ١٤٥٣، بعد معركة قاسية وحصار استمر ٢٣ يوما . وكانت النقطة الفاصلة التى قررت مصير المدينة عملية جريئة اقدمت عليها قوات السلطان ، اذ نقلت سبعين سفينة من سفن اسطوله ، بطريق « البر » ، من بقعة (ضولمة بفجة) الى بقعة (كاظم باشا) فى خليج القرن الذهبى ! .. كما ساهمت

بطولة قوات السلطان البرية ، واستماتتها فى القتال المرير ، فى احراز ذلك النصر الحاسم على القوات اليونانية التى دافعت عن المدينة بدورها دفاعا مستبسلا ، حتى اسقط فى يدها آخر الامر، ومات الامبراطور ـ قسطنطين اليونانى ـ نفسه فى المعركة !

ومنح « الفاتح » المهزومين امتيازات ومنحا خاصة ، ثم عاد الى (اطنة) ـ عاصمته من قبل ـ فبقى فيها حتى عام ١٤٥٨ ، حين نقلها نهائيا الى القسطنطينية ، التى صارت تعرف ـ للاتراك وحدهم ـ منذ ذلك اليوم ، باسم : اسطنبول ! .. ثم عكف السلطان على تجميل المدينة وتقويتها وتنظيمها اداريا .. الخ

٢٨ سلطانا .. ثم .. الجمهورية

• **وأعقب** محمد « الفاتح » ثمانية وعشرون سلطانا ، تعاقبوا على حكم البلاد ، وشيدوا فى اسطنبول عددا هائلا من المبانى الاثرية ، والمساجد ، والنافورات ، ومستودعات المياه .. وكان بعضهم حكاما عظاما ، فى حين كان البعض الآخر واقعا تحت تأثير مستشارين وناصحين أشرار ، غرروا بهم وخدعوهم ، فخلفوا وراءهم أسوأ الذكرى ..

وفى ٣٠ اكتوبر عام ١٩٢٢ خلع آخر اولئك السلاطين ـ وهو محمد السادس ـ عن العرش العثمانى .. والغيت السلطنة .

.. ففى تلك الاثناء ، بعد الحرب العالمية الاولى ، وكان



سوق مصر (سـوق التوابل) ، وبها مطعم ((بنـديلى)) المشـهور .

اليونانيون قد احتلوا اسطنبول ، برز ضابط ثائر – هو الغازى مصطفى كمال – أبى ان تقبل بلاده الشروط الجائرة التى فرضت عليها بعد الهزيمة .. فلجأ الى اقليم الاناضول، حيث جمع جيشا ، وحارب اليونانيين الذين غزوا وطنه ، حتى طردهم ..

وفى ٢٠ اكتوبر عام ١٩٢٣ ، عقدت (الجمعية الوطنية) – البرلمان – اجتماعا ، أعلنت فيه قيام الجمهورية ، وانتخبت الغازى مصطفى كمال « باشا » رئيسا لتلك الجمهورية .

الغاء الخلافة .. والطربوش .. وادخال الحروف اللاتينية

• وفى ٣ مارس ١٩٢٤ قطع البرلمان كل صلة بالماضى حين ألغى الخلافة ، ونفى « عبد المجيد » – الذى كان يحمل لقب « خليفة » فحسب ، بغير سلطنة – كما نفى جميع أفراد السلالة التى أسقطت عن الحكم .

ثم عكف الغازى مصطفى كمال على اصلاح البلاد من كافة النواحى ، فأحدث تغييرات شاملة فى كثير من الأسس الجوهرية : فى اللغة ، (حيث ألغى الحروف العربية وادخل الحروف اللاتينية) .. وفى أزياء اللباس القومى للشعب ، فألغى الطربوش واستبدل به القبعة .. وفى قوانين البلاد بكافة أنواعها، فاقتبس قانونا مدنيا من القانون السويسرى، وقانونا جنائيا من القانون الايطالى ، وقانونا تجاريا من القانون الالمانى ..



الكتبة العموميون ، بجوار سوق مصر

وفى عام ١٩٢٦ أخطرت تركيا الدول الاجنبية ، رسميا ، بأن القسطنطينية صارت تدعى اسطنبول ، (وكان هذا الاسم الاخير مستعملا منذ خمسة قرون بين الاتراك انفسهم كما سلف القول ، ولكن الاسم الاول كان هو المعترف به دوليا .)

وحين أنشأ اتاتورك مدينة (أنقرة) ، ونقل اليها العاصمة من اسطنبول ، بما يتبع ذلك من انتقال وزارات الحكومة و سفارات الدول الاجنبية وقنصلياتها .. تناقصت أهمية اسطنبول شيئا ما .. لكنها لم تلبث أن عادت فاستردت

مكانتها — السياحية ،والتجارية ، والدولية — باعتبارها المدينة « الاولى » فى تركيا !

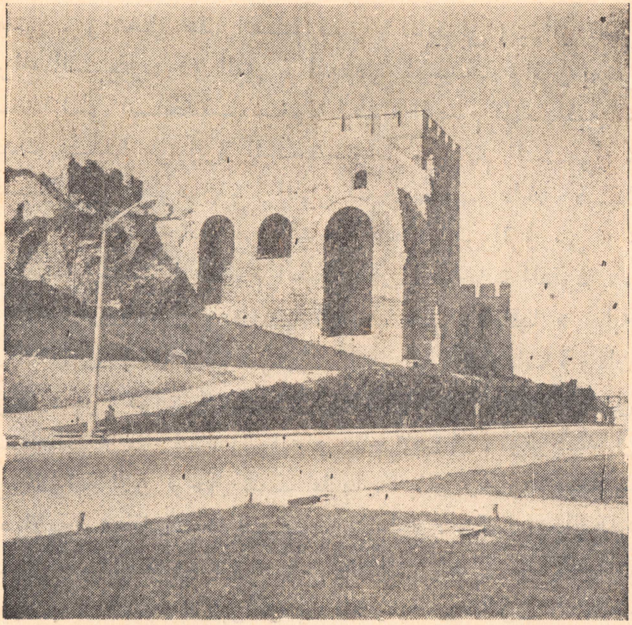
والآن ، بعد هذه الجولة الخاطفة عبر سبعة وعشرين قرنا من تاريخ اسطنبول .. (منذ عام ٦٥٨ — ق . م — حتى اليوم) .. تعال نقم بجولتنا الاخيرة بين معالم اسطنبول ، وصروح ماضيها ..

ولنبدأ جولتنا بزيارة :

أسوار اسطنبول : وهى بقايا وأطلال الاسوار التى كانت تحمي بيزنطة ثم القسطنطينية من غارات الاعداء ، خلال الحقب الحافلة بالاحداث فى تاريخها الطويل .. وهذه الأسوار تنقسم الى ثلاثة أقسام : أسوار تطل على خليج القرن الذهبى ، وأسوار تطل على بحر مرمرة ، وأسوار تطل على داخل تركيا .

وقد كانت أسوار القرن الذهبى تمتد مسافة خمسة كيلو مترات .. لكن أكثر معالمها تهدمت منذ كفت عن القيام بدورها فى الوقاية من هجمات الغزاة .

أما أسوار بحر مرمرة فتمتد نحو ثمانية كيلو مترات بمحاذاة الشاطىء ، حتى تلتقى بالقسم الثالث من الاسوار ، المشرف على داخل البلاد ، فتؤلف مثلثا من التحصينات التى كانت تحيط ببيزنطة احاطة السوار بالمعصم . وأسوار القسم الثانى هذه ماتزال فى حالة جيدة ، بحيث تبدو فى بعض اجزائها كما لو كانت لم تمس .. وفى اجزاء أخرى تستحم أقدامها فى أمواج البحر ، ويتخللها الكثير من القلاع ،



القديم والحديث : جزء من اسوار اسطنبول الأثرية ، وقد شق فى وسطها شارع حديث الرصف والاضاءة .

والحصون ، والقصور ، والابراج ، والبوابات ، بل وبعض بقايا المرافىء القديمة .

أما أسوار القسم الثالث ، الممتدة داخل البلاد ، فقد اعيد تجديدها فى أكثر من مناسبة ، وفقا لحاجات الدفاع

الوطنى . ويتخلل هذا القسم قصر (يديكولى) – أو قصر الابراج السبعة – ذو التاريخ الحافل بالاحداث ، فان بعض أجنحته التى استخدمت سجونا لاعداء الحكام المتعاقبين ، شهدت عددا من ابرز الشخصيات ، بينهم السفراء ، والسلاطين المخلوعون ، (الذين أعدم بعضهم داخل هذا السجن) . وفى جانب من السجن تقع « بئر الرؤوس » ، التى طالما ابتلعت الخصوم السياسيين لاصحاب النفوذ ..

.. ثم تمتد أسوار القسم الثالث حتى تتخللها « بوابة اطنة » المشهورة ، التى تعرضت للكثير من الهجمات ، وكان آخرها هجوم قوات السلطان محمد الفاتح ، الذى دخل القسطنطينية من هذه البوابة فى عام ١٤٥٣ . وتوجد فى أعلى البوابة الآن لوحة كتبت عليها – بالعربية والتركية – هذه الآية : « انا فتحنا لك فتحا مبينا » .. كما تتخلل هذه الاسوار « بوابة جنوا » و « برج جالاتا » اللذان كانا يحميان المدينة بعد ضمها للامبراطورية اللاتينية فى القرن الثالث عشر .

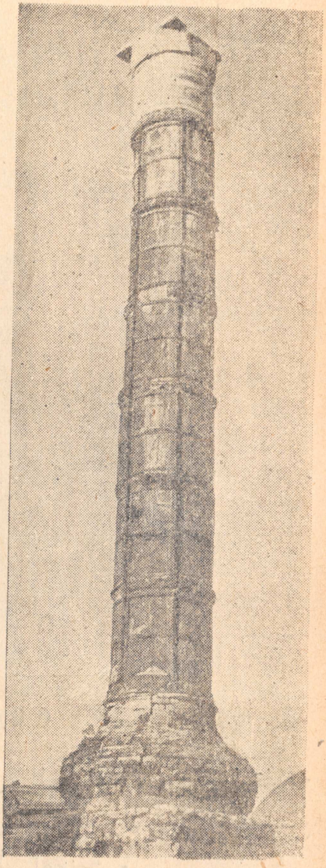
برج جالاتا : وهو البرج الذى كان يحمى الاحياء التى كان يقطنها الايطاليون من أتباع دولة (جنوا) اللاتينية . وحين غزت (جنوا) اسطنبول أطلق جيشها عليه (برج المسيح) .. ويرجع تاريخ تشييد البرج الى القرن الخامس .. وقد دمرته الحرائق مرتين ثم أعيد تشييده ، وكان له سقف مخروطى الشكل ، لكن السلطان محمد الفاتح أنقص من قمته نحو سبعة أمتار ، بعد دخوله المدينة . ويستعمل البرج



برج « جالاتا »

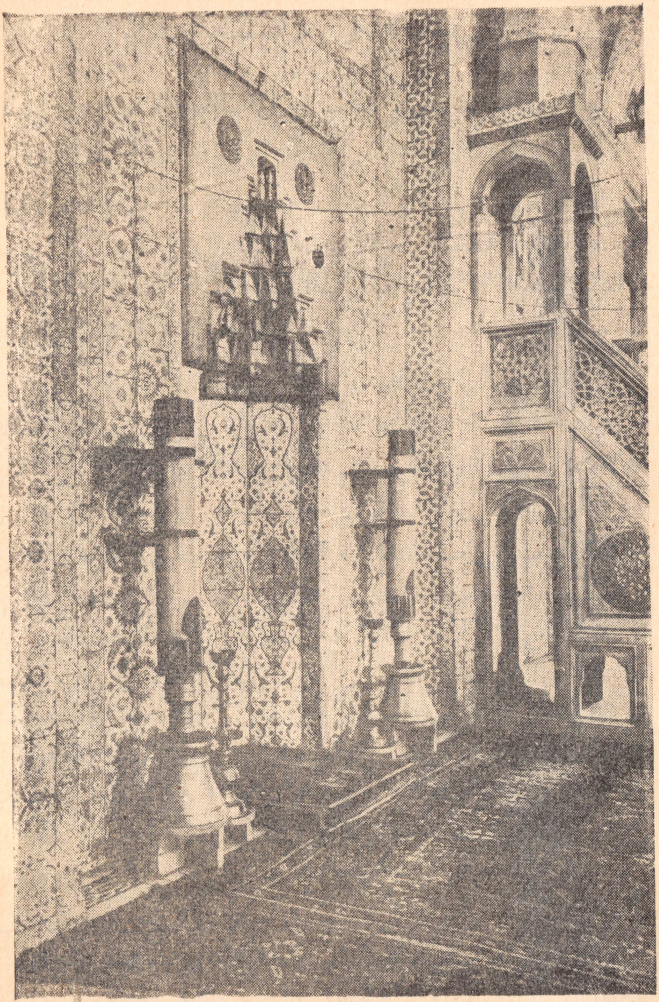
الآن كنقطة مراقبة لمحطة مطافىء الحرائق . ويبلغ ارتفاعه خمسين مترا ، وهو يشرف على استنبول اشرافا يمتع السائحين بمنظر من أجمل مناظر المدينة .

العمود المحروق (أو عمود قسطنطين) : وقد أطلق عليه « المحروق » بعد أن دمره حريق مروع فى عام ١٧٧٩ . وقد



العمود المحروق
(عمود قسطنطين)

كان ارتفاعه فى الاصل نحو ستين مترا ، ولكن لم يبق منه الآن سوى ٣٥ مترا . وهو يتألف فى شكله الحالى من ست كتل متصلة بشبه حلقات محفورة (كما يبدو فى الصورة) .. وفى اعلاه عدد من البلاطات المرمرية، تتوجها لوحة مربعة . وقد أقيم العمود فوق قاعدة دائرية عريضة كانت قبل الحريق رائعة الشكل . ويقال ان الامبراطور قسطنطين عند تشييده العمود خبأ فى اساسه كنوزا ونفائس رمزية كان قد أحضرها من روما . وطبقا للبيانات المكتوبة فوق قمة العمود كان الامبراطور «مانويل» قد أجرى فيه بعض الترميمات وأقام فوقه صليبا . ويقع العمود فى الطريق العريض الذى يؤدى من (أياصوفيا) الى ميدان بايزيد . وفى هذا الميدان الاخير أقيم مسجد بايزيد، وهو من أجمل مساجد

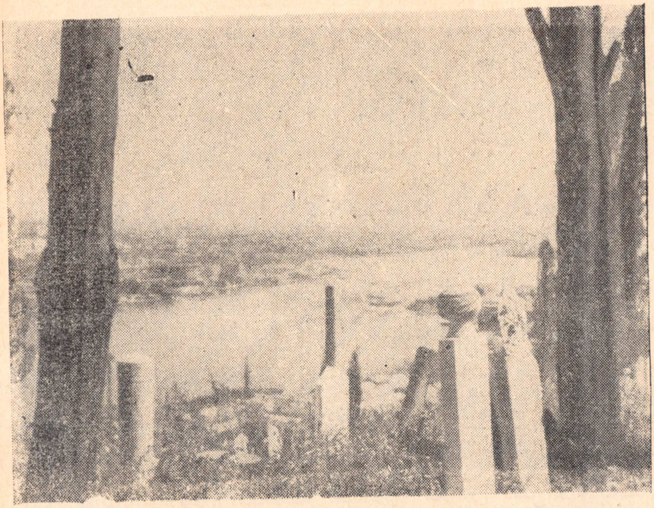


محراب مسجد ((رستم باشا)) ، وقد زين بأبدع النقوش.

اسطنبول ، كما انه يعد أول مسجد فيها شيد على الطراز التركى (بين عامى ١٥٠١ ـ ١٥٠٥)

قرية ((أيوب)) : وتطل من سفح ربوة على خليج (القرن الذهبى) ، على مسيرة أمتار معدودة من المحطة قبل الاخيرة من محطات السفن السياحية التى تذرع القرن الذهبى ذهابا وايابا طوال النهار ، حاملة أفواجا من زوار اسطنبول الأجانب .

وتعتبر القرية من أشهر معالم المدينة ، بحيث لا يخلو برنامج سياحى من زيارتها . وقد سميت باسم « أيوب » نسبة الى « أبو أيوب الانصارى » ـ (واسمه الأصلى « خالد ابن زيد بن كليب بن ثعلبة الانصارى ») الذى دفن فى القرية على أثر وفاته بسبب مرض أصابه أثناء حصار القسطنطينية عام ٥٢ هجرية . ثم أقيم له ضريح يحج اليه المسلمون الأتراك ، تبجيلا لذكراه واحتراما لمكانته لدى النبى محمد . وهم يروون فى صدد تعارفهما أن الجمل الذى كان يمتطيه محمد عند هجرته الى المدينة توقف عن السير أمام منزل « أيوب الانصارى » ، فاصطفاه النبى منذ ذلك اليوم صديقا . وقد شهد « أيوب » معارك (العقبة) ، و (بدر) ، و (أحد) ، و (الخندق) . وجاء فى سيرته انه « كان شجاعا ، صابرا ، محبا للغزو والجهاد » . وانه عاش الى أيام بنى أمية ، فرحل الى الشام ، ولما غزا « يزيد بن معاوية » القسطنطينية ـ فى خلافة أبيه ـ صحبه غازيا ، فحضر الوقائع ، ومرض أثناء حصار المدينة ، فأوصى بأن لا يدفن



خليج ((القرن الذهبى)) ، كما يرى من مقبرة ((ايوب الانصارى))

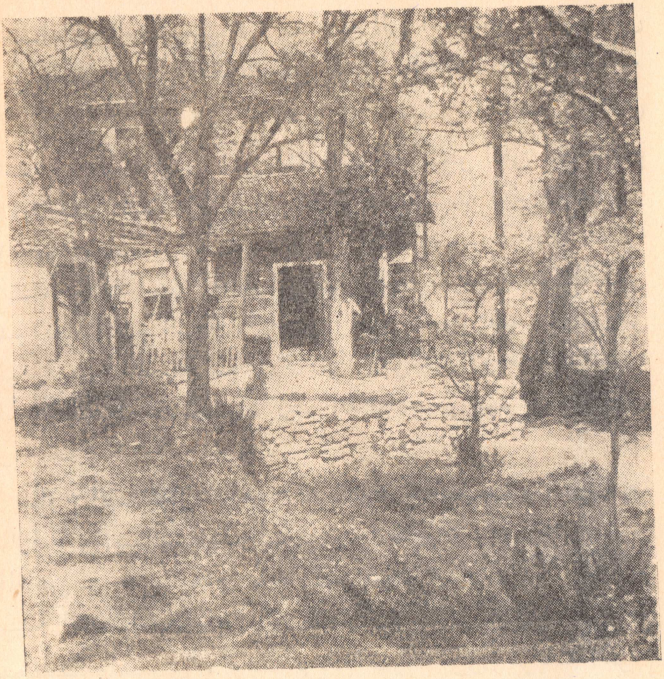
حيث يموت - خارج المدينة التى كان يحلم باقتحامها - بل ((يوغل به فى أرض العدو)) . فلما توفى نفذت وصيته فدفن فى موقع حصن القسطنطينية . وهو يعد من رواة أحاديث النبى ، ومن حملة اللواء فى غزواته . وقد كرم السلطان محمد الفاتح ذكراه فأقام له ضريحا ، ثم مسجدا فخما بجواره - فى عام ١٤٥٨ - وكلاهما يقع الآن على بعد نحو مائة متر من مرسى سفن (القرن الذهبى) . كما سميت القرية كلها باسمه ، حتى اليوم ، رغم انها تضم رفات الكثيرين غيره من

البارزين ، ومشاهير المسلمين ، وبينهم بعض سلاطين تركيا انفسهم ! .. وكذلك تضم القرية بعض التذكارات والمخلفات الخاصة بالنبى ، كما تضم « سيف آل عثمان » الذى كان يتمنطق به كل سلطان حين يرتقى العرش ..

مقهى بيير لوتى : فاذا تركنا ضريح « أيوب الانصارى » ، ومسجده ، والحمام الوادع المتزاحم فى فناء المسجد .. وصعدنا السفح متجهين صوب قمة التل ، ألفينا انفسنا نسير فى « طريق المقابر » ، بين صفوف من مقابر الاغنياء والبارزين .. حتى يفضى بنا الطريق الى ساحة فسيحة ، ساكنة ، بها مقابر العامة .. هناك قد نستطيع أن نعثر على قبر « أزياده » AZIYADÉ ، البطلة الخالدة لقصة « بيير لوتى » التى استمتع بقراءتها ملايين القراء ، بجميع اللغات ..

.. فاذا واصلنا الصعود حتى قمة التل ، رأينا أمامنا على حافة المرتفع مقهى ريفيا متواضعا (ترى صورته مع هذه السطور) ، يشرف على أبدع منظر لخليج القرن الذهبى ، الراقد يتلوى كالثعبان الفضى فى قاع الهاوية ! .. انه المقهى المفضل لدى الكاتب الفرنسى الكبير « بيير لوتى » ، ومهبط الهامه الخالد الذى أوحى اليه بأروع قصصه الطويلة التى تدور حوادثها فى تركيا –واسطنبول بالذات – فى عصور الحريم والسلاطين .

(وفى أحد شوارع اسطنبول القديمة يقع البيت الذى كان يقطنه « بيير لوتى » خلال زياراته العديدة الطويلة للمدينة



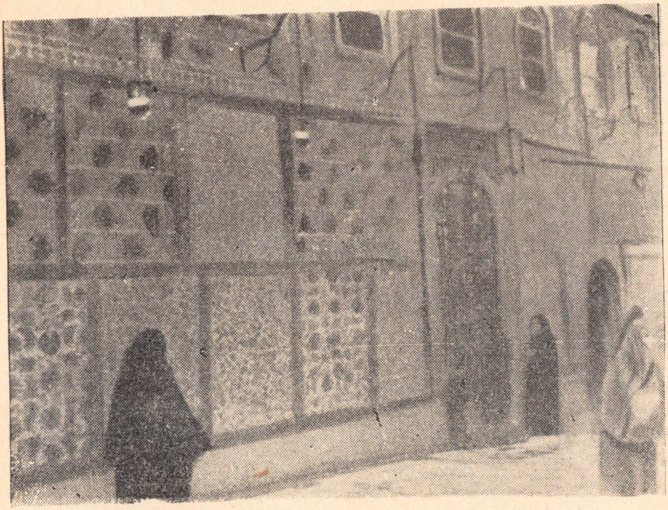
المقهى المفضل عند الروائى الفرنسى ((بيير لوتى))

العريقة التى عشقها ، وأبدع فى تحليل عواطف نسائها ذوات «الاجنحة الكسيرة» ، فى عهد الحجاب والكبت والحرمان ..

مسلة تيودوسيوس : ومن عجب ان هذه المسلة المصرية ، (التى ترى صورتها فى صفحة ٩) ، يطلق عليها فى اسطنبول

« مسلة تيودوسيوس » ، نسبة الى الامبراطور البيزنطى الذى احضرها من هليوبوليس الى (بيزنطة) عام ٣٣٠ .. بدلا من أن تنسب الى صاحبها « تحتمس الثالث » الذى أقامها فى هليوبوليس قبل ذلك التاريخ بنحو ألفى عام (عام ١٥٤٧ قبل الميلاد) ! .. ويبلغ ارتفاع المسلة (دون قاعدتها) ١٨ مترا وستين سنتيمترا . وقد نصبت فوق قاعدة نقشت بعد اقامتها بالنقوش البيزنطية . لكن هذه النقوش تبدو بعيدة عن الدقة والاتقان اللذين تتميز بهما النقوش الهيروغليفية الجميلة المحفورة على الجوانب الاربعة الجرانيتية الملساء للمسلة نفسها .. رغم انقضاء نحو عشرين قرنا بين تاريخ هذه النقوش ، وتلك !

شارع الاستقلال : وهو أكثر شوارع اسطنبول ازدحاما بالمارة ، والحوانيت ، والبنوك ، والمطاعم ، ودور السينما والملاهى ـ حتى ليطلق عليه الامريكيون «برودواى» ! ـ رغم ضيقه الشديد بالقياس الى الشوارع الحديثة فى المدن ذات التخطيط العصرى . ومما يزيده ضيقا مرور عربات الترام فيه، وهى عربات عتيقة مفتوحة المداخل، من الطراز العتيق . ومن أشهر معالم الشارع مطعم « عبد الله » ـ وهم ينطقونه بضم الدال ضما شديدا وتخفيف لفظ الجلالة ، أى بلهجة غير عربية على الاطلاق ـ وهو مطعم أنيق يزخر دائما بالسائحين وزائرى المدينة وقاطنيها ، من أرقى الطبقات ، يجذبهم اليه جوه الخاص الخلاب وأطعمته الشهية التى



ضريح « ايوب الانصارى »

يختلط فيها الطابعان الشرقى والغربى .. فأنت فيه تستطيع أن تشرب الزبيب (العرق) الشرقى الذى فيه نكهة «الينسون»، وتأكل الكباب القاهرى المنظوم فى أسياخه المحماة .. فى نفس الوقت الذى تطلب فيه، اذا شئت، زجاجة الشمبانيا وطبق المايونيز ، أو « الفينر شنتزيل » النمسوى الاصيل !

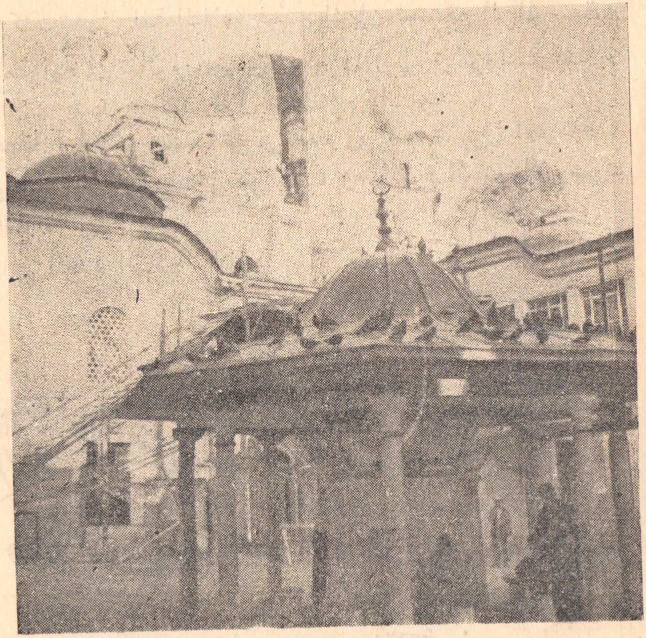
وشارع الاستقلال يصل بين نفق اسطنبول ، من ناحية ، وبين ميدان (تقسيم) ، من الناحية الاخرى .. فهو يبدأ

عند نهاية النفق ، الذى يعتبر أقدم طريق « تحت الارض » فى العالم ، اذ انشىء عـام ١٨٧٣ .. ثم ينتهى فى ميـدان (تقسيم) ـ أو (تكسـيم) كما ينطقونه ويكتبونه ـ وهو الميـدان الرئيسى فى المدينة ، الذى تتفرع منه أكثر خطوط الاوتوبيس والترام، كما يتفرع منه الشارع المؤدى الى فندق هيلتون ومكاتب شركات السياحة والطيران ..

ويتوسط ميدان (تقسيم) ، النصب التذكارى للاستقلال، وهو تمثال رائع يبدو من أحد جانبيه الغازى مصطفى كمال « أتاتورك » مع زملائه لحظة اعلان الجمهورية..ومن الجانب الآخر يبدو أتاتورك فى ثياب القائد الاعلى للجيش ، وهو يعطى الامر بالهجوم !

قصر يلدز : وهو من قصور سلاطين تركيا المشـهورة ، ويتألف من عدة ابنية وأجنحة ، تتناثر وسط حدائق القصر الشاسعة ، وقد شـيد أولها فى عام ١٨٥٠ . وأجمل هـذه الابنية مبنى الحفلات الرسمية ، وتغطى قاعته الكبرى سجادة هائلة تعتبر أكبر سجادة فى العالم ، اذ تبلغ مساحتها ٧٠٠ متر مربع ! .. ومما يؤسف له انها أصيبت بتلف كبير أثناء ترميم المبنى !

فنون المسرح والموسيقى : بقى أن تعرف شيئا عن فنون المسرح والموسيقى فى اسطنبول . وهنا يختلف الامر تبعا لما اذا كنت تتكلم لغة البلاد أو تجهلها . فان كنت تفهم التركية ففى وسعك أن تقضى سهرة ممتعة فى أحد المسارح التى تعرض



الحمام يتزاحم حول ((سبيل)) ايوب الانصارى باسطنبول .. كما يتزاحم فى ميدان (سان ماركو) بفنيسيا

أروع المسرحيات العالمية مترجمة الى التركية ، ابتداء من روائع «شكسبير». قديما الى مسرحيات «أونيل» حديثا ..

أما ان كنت تجهل لغة البلاد، فحسبك ان تستمع الى الموسيقى السيمفونية فى تياترو (سراى) ، أو فى (ينى تياترو) ـ مسرح البلدية ـ بشارع الاستقلال ، صباح كل أحد .

وبهذا ، أختم مشاهداتى لك فى اسطنبول العريقة ، وضواحيها ، وجزر بحر مرمرة ، وشاطىء البحر الاسود .. الخ .

فالى العدد القادم ، لنبدأ جولة جديدة ، فى .. ؟

حلمى مراد



إستقالة !

من روائع القصص الهندى الحديث
للكاتب الهندى المعاصر : بريم شاند

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

عزيزى القارىء :

الصلات بيننا وبين الهند تزداد توثقا يوما بعد يوم ، فان أوجه الشبه بين الامتين كثيرة ، سواء فى التاريخ ، أو فى الامجاد القديمة ، أو فى المحن والمتاعب التى جنتها كل من الدولتين من الاستعمار البريطانى ، أو فى النهضة التى دبت فى كيانها أخيرا ، ومكنتها من أن تسترد حريتها وأن تنتزع استقلالها من قبضة المستعمر ، أو فى وثباتها السريعة لتلحق بركب التقدم بعد ان عاقها الاجنبى عن اللحاق به طويلا ، أو فى وقفتها فى مناصرة الدول الاخرى التى لم تظفر بعد بحريتها ، أو التى ظفرت باستقلالها ولكن براثن الاستعمار الغربى تحاول أن تنتزع منها هذا الاستقلال قبل أن تنعم به ..

كل هذه أوجه شبه لا سبيل الى انكارها .. وليست أوجه الشبه فى آداب الأمتين أقل شأنا وقيمة .. وقد سبق ان قدم لك « كتابى » نماذج من الأدب الهندى فى بعض اعداده ، كما قدم لك أول ترجمة كاملة لقصة طويلة من تحف أديب الهند الاكبر « تاجور » ، الذى تحتفل الدوائر الأدبية بمرور مائة سنة على عيد مولده .. وتلك هى قصة « قلوب ضالة » التى صدر بها العدد (١٢) من « مطبوعات كتابى » .

وفى الصفحات التالية ، نقدم لك نموذجا آخر من القصص الهندى الحديث .. قصة ترسم أروع صورة لما كانت عليه غطرسة الانجليز — فى الهند — أيام الاحتلال ، ولما كانت تضطرم به نفوس الهنود من اباء وعزة .. وقد تجلى فى سطورها ابداع الكاتب الهندى فى السخرية ، وبراعته فى التحليل .. فهى تحفة أدبية بحق !

الموظف الحكومى حيوان أعجم .. أعبس فى وجه عامل يعبس فى وجهك ، واحتد على حمال يلق حمله ويرفض أن يحدث ، واغلظ لمتسول تجده لا يعدم وسيلة يجعلك بها تشعر بضالتك .. حتى الحمار ، لايلبث أن يركل بساقيه الخلفيتين اذا أنت أمعنت فى تعذيبه !.. أما الموظف الحكومى فلا يفعل شيئا من هذا ! .. اعبس فى وجهه ، احتد عليه ، سبه ، اضربه .. تجده يتحمل كل هذا بصمت !

ان له مقدرة على ضبط مشاعره ، لا يكاد يكتسبها « اليوجى » بعد سنوات من رياضة النفس والسيطرة عليها . فهو صورة للقناعة ، ومثال للصبر ، ونموذج للولاء وللاحترام . انه مركب من كل الفضائل . ومع ذلك ، فان الحظ لا يبسم له قط .. حتى السقف المصنوع من القش ، والذى يعلو كوخ فلاح بائس ، لايعدم أن يعرج عليه الحظ فى دورته .. فيغمره الضوء فى ليلة « ديوالى » — عيد المصابيح — وينعم بالمطر اذا تساقط عليه ، ويستمتع بمرأى الفصول وهى تتتابع واحدا بعد آخر .

ولكن أى « بابو » — موظف حكومى — لايحظى بما يخفف وطأة رتابة حياته .. وما من شعاع من الضوء يتسلل فى ظلام حياته .. وما من اشراقة ابتسامة تزين وجهه !

***

ولقد كان « لالا فاتح شاند » من هذه الفصيلة العجماء من البشر !

يقولون ان الاسم يؤثر على شخصية صاحبه الى حد ما .

واسم « فاتح شاند » معناه « بدر النصر » أو « قمر الفوز » ، ولكن شخصية بطلنا توحى بأن الأنسب أن نسميه « عبد الهزيمة » ! .. فلقد فشل فى وظيفته ، وفشل فى حياته الخاصة ، وكان فاشلا بين أصدقائه .. كان الانكسار وخيبة الأمل يحفان به من كل ناحية . فلم يكن له ابن ذكر ، وانما كانت له ثلاث بنات .. ولم يكن له أشقاء ، وانما كانت لزوجته شقيقتان .. ولم يكن له درهم ولا قرش يرتكن اليه ..

كان كريما وسخيا بطبعه ، وهذا معناه ان كل امرىء كان يستغله .. وفوق كل هذا ، كانت صحته دائما معتلة .. فمع انه فى الثانية والثلاثين ، الا ان شعره كان بلون الملح والفلفل ، وكانت عيناه بلا بريق ولا ضياء .. وكان جهازه الهضمى تالفا ، ووجهه شاحبا ، وخداه غائرين ، وكتفاه مقوستين .. لم تكن فى قلبه شجاعة ، ولا فى دمائه قوة !

وكان يذهب الى مكتبه فى التاسعة من كل صباح ، ويعود فى السادسة من المساء ، فلا تبقى له — بعد ذلك — طاقة على مبارحة الدار . ولم تكن لديه أتفه فكرة عما كان يجرى خارج جدران بيته ومكتبه ..

وكان المكتب هو كل حياته الراهنة ، وحياته المقبلة .. هو جنته وجحيمه .. ولم يكن يعنى أقل اعتناء بدين ، أو بتسلية ، أو بعبث أو خطيئة .. بل لقد انقضت سنوات منذ لمست يداه ورق اللعب لآخر مرة !

***

وكان الشتاء قد حل ، والسماء مكفهرة بعض الشىء ، والشموع قد أشعلت ، عند ما عاد « لالا فاتح شاند » من مكتبه الى داره ، ذات مساء .. واستلقى — كعادته — على أريكه فى حجرته المظلمة ، لايريم حراكا لمدة عشرين دقيقة ، لم يكن يجد قبلها طاقة على أن يستجمع قوته ليفتح فمه . وكان مستلقيا فى سكينة وهدوء ، عندما انبعث ضجيج فى الخارج ..

كان ثمة شخص يناديه .. وأسرعت ابنته الصغرى الى الخارج ، لترى من القادم ، ثم عادت قائلة ان أحد سعاة المكتب يطلبه .. وكانت زوجته « شاردا » تجلو بعض الاوعية النحاسية بالرماد ، قبل أن تقدم لزوجها الطعام ، فقالت لابنتها : « سليه عما يريد ؟ .. ان أباك قد عاد لتوه من المكتب ، فلماذا يريدونه ثانية ؟ »

وأجاب الساعى : « ان الصاحب (الرئيس الانجليزى) يريده ، وهو يقول ان هناك أمرا هاما ! »

وطار النعاس من عينى « لالا فاتح شاند » ، بعد أن كان قد أغفى لفرط التعب . ورفع رأسه المكدود عن الاريكة ، وتساءل : « من هناك ؟ » .. فأجابت شاردا : « انه الشابراسى » .. أى ساعى المكتب .

— « الشابراسى » ؟ .. ترى هل يريدنى « الصاحب » ؟

فعادت شاردا تقول : « أجل ، انه يقول انه يريدك عاجلا .. أى نوع من الرجال هذا « الصاحب » ؟ .. انه دائما

بطلبك . أو لم يكتف بك طيلة النهار ؟.. قل له انك لاتقوى على الذهاب ، فان أسوأ ما يملك أن يفعله ، هو أن يحرمك هذا العمل التعس .. الا دعه يفعل ! »

وتمتم « فاتح شاند » ، وكأنه يحدث نفسه : « لقد انهيت اليوم كل عملى ، فما الذى يريدنى من أجله ؟ .. انه لأمر عجيب ! » . ثم رفع صوته ليسمعه الساعى الذى كان لايزال واقفا خارج الدار : « هاأنذا قادم ! » .. وتأهب للخروج . فقالت شاردا : « بل تناول شيئا من الطعام ، فانك لن تلبث أن تنسى كل شىء اذا ماخرجت للساعى » .

وأحضرت له وعاء به عدس . وكان « فاتح شاند » قد نهض متأهبا للانطلاق ، ولكنه لم يكد يرى الطعام حتى جلس ثانية . وتأمله فترة فى اشتهاء ، ثم سأل زوجته : « هل أصابت البنات منه نصيبا ؟ » . فردت شاردا محدقة ، وكأنها كانت تتوقع هذا السؤال وتستنكره : « أجل ، أجل ! .. لقد نلن نصيبهن ، فاجلس وكل ! »

وفى تلك اللحظة ، ظهرت البنت الصغرى ، وكأنما انشقت عنها الارض ، ووقفت على مقربة . فأصلتها « شاردا » نظرات كأنهاالخناجر ، وقالت لها : « ما الذى تفعلينه هنا ؟ .. اذهبى والعبى فى الخارج ! » .. فقال فاتح شاند : « لا توقعى الذعر فى نفس الصغيرة ! .. تعالى ياتشونى ، تعالى فاجلسى هنا ، وخذى نصيبا من هذا ! » .

ولكن الطفلة رمقت أمها فى خوف ، وأسرعت تجرى الى الشارع . وقالت شاردا : « انه ليس بالكثير كما ترى ..

لا يكفى لكى توزعه على البنات ، فانك ان تعطها لن تلبث ان ترى الأخريين قادمتين تطلبان بعضا منه مثلها » .

***

وفى اللحظة عينها ، صاح « الشابراسى » - الساعى - من الخارج : « بابو ! .. ان الوقت يمضى ، وقد تأخرت ! »

فقالت شاردا لزوجها : « لماذا لا تقول له انك لن تذهب فى مثل هذه الساعة من الليل ؟ »

- وكيف أقول وهذا مصدر قوتى ومعاشى ؟

- انك تمكن هذا « الصاحب » من أن يرهقك بالعمل حتى الموت ! .. هل تأملت وجهك فى المرآة ؟.. انك تبدو كما لو كنت مريضا منذ ستة أشهر !

والتهم « فاتح شاند » بضع ملاعق قليلة من العدس ، وشرب كوبا من الماء مسرعا ، ثم بادر الى الخروج ، دون أن ينتظر « شاردا » حتى يحييها ..

وقال « الشابراسى » اذ رآه : « لقد تلكأت طويلا يا بابو . فلنسرع ، والا فسيطلق « الصاحب » سيلا من السباب بمجرد أن يراك ! »

وحاول « فاتح شاند » أن يجرى ، ولكنه لم يمض بضع خطوات حتى عدل عن المحاولة ، وقال : « فليسب ماطاب له السباب ، فليس بوسعى أن أجرى .. أهو فى داره أم فى المكتب ؟ »

فقال الساعى : « ولماذا يكون فى المكتب ؟.. أليست له السلطة حيث يكون ؟ »

وكان الساعى سريعا فى مشيته ، بحكم عادته ، فى حين كان « بابو فاتح شاند » على النقيض ، يمشى بطيئا متمهلا . ولكن ، كيف كان يحتمل أن يعترف بهذا ، وفى نفسه بقية من كرامة واعتزاز ؟ .. لذلك بذل جهدا فى سبيل أن يلحق بالساعى ، ولكن المحاولة لم تعد بطائل . وسرعان ما أحس بالام فى ضلوعه ، وتعسر تنفسه ، ودار رأسه ، وتفصد العرق غزيرا من كل جسمه ، وغامت عيناه ..

وراح الساعى يستحثه فى غير رحمة : « اسرع يا بابو .. انك تبطىء فى سيرك ! » . **ولكن « فاتح شاند » لم يعد يقوى ، فقال وهو يجد عناء فى الكلام : « اسبقنى ! .. انطلق ، وقل له اننى قادم فى اثرك » .**

وجلس على رصيف ، على أحد جانبى الطريق ، واعتمد رأسه بين يديه ، وراح يشهق وقد تهدجت أنفاسه . واذ رآه الساعى على هذه الحال ، لم ينبس ببنت شفة ، ومضى فى طريقه لايلوى على شىء . وأوجس فاتح شاند خيفة مما قد يذهب هذا الشيطان فيقوله للرئيس الانجليزى . لذلك لم يلبث ان تحامل على نفسه ، ونهض من مجلسه ، وعاد الى السير .. ولو ان طفلا دفعه ــ اذ ذاك ــ لانهار واقعا ، اذ كانت ساقاه لاتكادان تحملانه .

واستطاع أن يصل أخيرا الى دار « الصاحب » وهو يتعثر ويتخبط .

***

وكان « الصاحب » يذرع أرض الشرفة جيئة وذهابا ،

ويتطلع الى باب الدار مرة اثر مرة ، وقد أذكى غيظه انه لم يكن يرى أحدا قادما . فلما رأى الساعى – عند وصوله – صرخ فيه : « أين كنت طيلة هذا الوقت ؟ »

وقال الساعى ، وقد وقف أسفل الدرجات المفضية الى الشرفة :

– عفوا يا حاظور (أى ياحضرة) ! .. لقد تأخر فاتح شاند طويلا ، حتى لم أعد أطيق انتظاره . وانك لترى اننى جئت راكضا .

وقال « الصاحب » بلغته الهندستانية الركيكة : « وماذا قال لك البابو ؟ »

– انه قادم .. لقد استغرق ساعة ، قبل أن يغادر البيت .

وفى تلك الاثناء ، وصل « فاتح شاند » ، فدلف الى فناء البيت الرحب ، **واقترب من الشرفة ، ورفع يديه محييا « الصاحب » ، ثم انحنى له . فصاح فيه « الصاحب » مستشيطا : « لماذا تأخرت كل هذا الوقت ؟ »** . وما ان رأى فاتح شاند أسارير « الصاحب » ، حتى هرب الدم من عروقه ، وقال : « لم أكن قد غادرت المكتب الا من مدة وجيزة ، عند ما جاءنى الساعى يا « حاظور » .. ومع ذلك ، فانه لم يكد يدعونى حتى غادرت المنزل بأسرع ما استطعت ! »

– انك تكذب .. لقد ظللت انتظر هنا ساعة .

ـ لست أكذب يا حاظور .. ومن المحتمل اننى استغرقت من الوقت ـ فى الطريق ـ أكثر مما ينبغى ، لأننى أشعر بتوعك . ولكنى بارحت الدار بمجرد ان دعانى الساعى .

ولوح « الصاحب » بالعصا التى كان يحملها .. كان من الواضح انه قد أفرط فى الشراب . وصرخ : « اسكت أيها الخنزير ! .. لقد ظللت واقفا هنا ـ فى انتظارك ـ أكثر من ساعة . أمسك أذنيك واطلب الصفح ! »

وسيطر فاتح شاند على أعصابه بجهد ، وكأنه يزدرد دما . ثم قال : « لقد اشتغلت اليوم فى المكتب ـ يا حاظور ـ لأكثر من عشر ساعات .. أبدا لم .. »

ـ أسكت أيها الخنزير ! .. امسك اذنيك !

ـ اننى لم أذنب ، ولم أرتكب خطأ ما !

فصاح الانجليزى السكران : « ياشابراسى .. شد اذنيه ! »

وأجاب الساعى بصوت خافت ، ولكنه حازم : « انه ـ هو الآخر ـ رئيس على ، ياحاظور . فكيف أشد أذنى رئيسى ؟ »

ـ قلت لك : شد اذنيه ! .. اذا لم تفعل فسوف أضربك !

وأجاب الساعى : « لقد جئت الى المكتب لأعمل ، وليس لأضرب يا حاظور ! .. ان لى ـ أنا الآخر ـ كرامة . وفى وسعك يا حاظور أن تحرمنى عملى .. اننى على استعداد لأن أطيع أوامرك ، ولكنى لا أستطيع أن امس كرامة اى امرىء آخر . فأنا لن أظل فى هذا العمل الى الأبد ، ولست احب ان اعادي الدنيا من أجله ! »

***

ولم يعد « الصاحب » يقوى على كبح غضبه ، فاندفع بعصاه نحو الساعي ، ولكن الساعي كان قد ادرك انه لن يامن على نفسه اذا مكث ، فولى الادبار هاربا .

وظل « فاتح شاند » واقفا ، صامتا ، مسمرا في مكانه . .

فلما رأى « الصاحب » ان ليس بوسعه ان ينال من الساعي ، تحول الى الموظف . فأمسك اذنيه ، وراح يهزه وهو يصيح : « ايها الخنزير ! . . انك عاص ، متمرد ! . . اذهب فأحضر الملف من المكتب ! »

فقال فاتح شاند ، وهو يتحسس اذنيه : « أي ملف ياسيدي ؟ »

– أي ملف ؟! . . أي ملف ؟! . . أأصم أنت لاتسمع ! . . اريد الملف ، فهل سمعت ؟

واستجمع فاتح شاند قسطا من الشجاعة ، وسأله في شيء من الاستهجان : « أي ملف تريد ؟ »

كان حائرا ، ولكنه لم يؤت من الجرأة مايمكنه من أن يتابع السؤال . فان « الصاحب » كان رجلا سيء الطباع بفطرته ، وكان – فوق ذلك – ثملا بخمر السلطان ، وثملا بالويسكي ! . . ولم يكن في وسع أحد أن يتنبأ بما كان يحتمل أن يقدم عليه بعد ذلك . ومن ثم آثر فاتح شاند أن يتجه الى المكتب في خطى بطيئة .

وصرخ الصاحب : « اسرع ! . . اجر ! »

فقال الموظف : « لا أستطيع أن أجرى يا حاظور ! »

ـ أرى انك تزداد كسـلا ، أليس كذلك ؟ .. سـأعلمك كيف تجرى ! .. اجر ، هل تسمع ؟.. اجر !

ثم ركله فى ظهره ركلة قوية .

ولقد كان فاتح شاند موظفا ، ولكنه كان انسانا ، مخلوقا آدميا كذلك . ولو انه كان على شيء من القوة ، لماتحمل كل هذا القدر من المهانة ، من رجل سكران . أما وقد كانت تلك حاله من الضعف ، فانه لم يجد فى المقـاومة جدوى . فانطلق جاريا ، واجتاز الباب الخـارجى للدار ، نافذا الى الطريق .

***

ولم يذهب فاتح شاند الى المكتب ، فان « الصـاحب » لم ينبئه أى ملف بالذات كان يبتغى . . وحدس ان «الصاحب» ربما كان ثملا الى درجة لم يتبين معها داعيا لأن يعين الملف الذى كان ينشد . لذلك سار الى داره بخطى وئيدة ، لأن الألم والأسى ـ من جراء هـذه المهـانة غير المرتقبة ـ غلا قدميه بأغلال لم يكن له بها قبل .

كان من الصحيح ان « الصاحب » أقوى منه بدنيا ، ولكن .. ألم يكن بوسعه ان يصارحه برأيه فيه على الاقل ؟ .. لماذا لم يخلع حذاءه فيضرب به وجه « الصـاحب » جـزاء ما أنزل به من هوان ؟ .. ولكن فكره لم يلبث أن بين له انه لم تكن ثمة حيلة له فى هذا الامر ، فقد كان بوسع الانجليزى أن يرديه قتيلا بطلقة من مسـدسه ! .. ولو انه فعل لـما

أوقعوا به سوى عقاب مخفف ، لو انهم ارتضوا ان يعاقبوه .. الحبس لمدة شهرين ، أو غرامة مالية تتراوح بين ثلاثمائة واربعمائة روبية !

أما هو – فاتح شاند – فان أسرته كلها كانت تتعرض للهلاك ، لو ان شيئا من هذا حصل . وما كان ثمة من يحفل ببناته ، فكان من المحتمل أن يتضورن جوعا فى الطرقات . أواه ، لماذا لم يقدر له أن يكون أغنى قليلا مما هو ؟ .. لو كانت لديه فضلة من مال يستطيع أن يركن اليها ، لما احتمل هذه المعاملة . وما كان ليخشى ان يلقى حتفه بعد أن يكون قد ألقى على هذا الانجليزى الفظ درسا صحيحا . ان خوفه لم يكن راجعا الى حرصه على نفسه ، فما كانت فى الدنيا متع كبيرة يأسف على تركها . وانما كان خوفه راجعا الى زوجته ، وبناته فقط ..

وتقاطرت على ذهنه شتى الافكار ، وهو ماض فى طريقه .. ترى لماذا أهمل صحته حتى بلغت هذا الحد من السوء ؟ .. كان من الواجب ان يحمل سكينا معه أينما ذهب ، لينتقم لنفسه فى ظرف كهذا الذى تعرض له .. كان خليقا به أن يصفع وجه « الصاحب » ، ثأرا لكرامته .. وربما كان أتباع « الصاحب » وخدمه ، قد انهالوا عليه ضربا ، حتى أفقدوه الوعى ، أو حتى قبضوا عليه ، لو انه فعل ذلك .. **ولكن النبأ كان خليقا بأن ينتشر ويذيع ، فيقال أن شخصا استطاع أن يقف فى وجه الطغيان وقفة صادقة !..**
ثم انه لم يكن هناك بد من أن يموت يوما ما ، فالموت مصير

لا مفر منه .. واذا حان فلن يملك أن يعنى بأسرته بعد أن يموت .. ولكن ميتته كانت جديرة بأن تحاط بشىء من الشرف والكرامة !

وأهاجت الفكرة الاخيرة حماسه ، وألهبت مشاعره ، حتى انه تحول مستدبرا ، واتخذ بضع خطوات نحو دار الانجليزى .. ولكنه لم يلبث أن تردد وأحجم .. وراح يقنع نفسه بأن « الصاحب » ربما كان قد غادر الدار الى النادى .. ثم ماجدوى أن يثير المتاعب على رأسه ؟ .. أن فيما أصابه منها حتى الآن الكفاية !

***

وما أن بلغ فاتح شاند داره ، حتى سألته شاردا : « لماذا دعاك « الصاحب » اليه ؟ .. لقد تأخرت كثيرا عنده » .

واستلقى على الفراش متهالكا ، ثم قال : « لقد كان ثملا .. ولقد سبنى ذلك الشيطان ، وأهاننى .. ولم يكف عن أن يردد : « لماذا تأخرت عن الحضور فورا ؟ » .. ثم طلب الى الساعى أن يشد أذنى » .

وهتفت شاردا فى غضب : « ولماذا لم تضرب وجهه بنعلك ؟ »

فقال فاتح شاند ، مستأنفا حديثه : « ولكن الساعى كان رجلا طيبا ، فقد قال بصراحة : « اننى لست فى خدمتك يا حاظور ، لكى أهين كرامات الناس .. ثم أدى له التحية ، وانصرف لفوره » .

ـ انه لرجل شجاع حقا . ولماذا لم تلق فى وجه ذلك الانجليزى برأيك فيه ؟

ـ هذا عين ما فعلت .. بل اننى رميته بأكثر من رأيى فيه . فاندفع نحوى مشهرا عصاه ، واذ ذاك خلعت حذائى .. وضربنى بالعصا ، فضربته بالحذاء !

وبهر كلامه شاردا ، فهتفت : « أحقا فعلت ؟ .. لابد ان منظر وجهه أصبح ممتعا ! »

ـ لقد لاح وجهه كما لو أن أحدا كنسه بمكنسة قوية ..

ـ أحسنت صنعا !.. ولو اننى كنت هناك ـ بدلا منك ـ لما تركته وفيه نفس يتردد !

ـ الواقع اننى ضربته بما فيه الكفاية .. ولكن الامور لن تجرى هينة بعد اليوم ، ولست ادرى ما سوف يجرى . لسوف أفقد عملى ، بطبيعة الحال ، وقد يزج بى فى السجن فوق ذلك .

ـ ولماذا يلقى بك فى السجن ؟ .. اليس فى الدنيا عدل ؟ .. لماذا سبك وأهانك ؟ .. لقد كان هو البادىء بالعدوان ، اذ ضربك . أليس كذلك ؟

ـ لن يصغى أحد لقولى .. حتى القضاة سيقفون فى صفه .

ـ لا بأس ! .. سترى الآن ان احدا من الموظفين الانجليز لن يجسر على أن يعامل مرؤوسيه مثل هذه المعاملة .

ـ ولقد كان من الممكن ان يطلق الرصاص على .

ـ كان من المحتمل ان يراه أحد ويشهد بما فعل .

وهنا تساءل فاتح شاند ، وهو يبتسم : « ترى ما الذى كان يصيبكن ، لو حدث هذا ؟ »

ـ كان الله خليقا بأن يتولانا . ان اعظم واجب على الانسان هو أن يصون شرفه وكرامته . **ولو انك فرطت فى شرفك وكرامتك لما كنت جديرا بأن ترعى بناتك وتصونهن ! .. أما وقد ضربت ذلك الشيطان ، فانى فخورة بك .. ولو انك تقبلت الاهانة صامتا ، وسكت عليها ، لكرهت ان انظر الى وجهك ! ..** ولقد كان من المحتمل ان لا اقول لك شيئا ، ولكنى كنت خليقة بأن افقد كل احترام لك ، فى قرارة نفسى ..

ومضت شاردا تقول ، فى هدوء : « اما الآن ، فمهما تكن عواقب الامر ، فاننى سأواجهها راضية مغتبطة .. ولكن ، الى اين انت ذاهب ؟ .. اسمع ، اسمع ! .. »

***

ولم يصغ اليها فاتح شاند .. كان قد اندفع ـ كالمجنون ـ مغادرا الدار .. وراحت شاردا تناديه ، وتصيح وراءه ، ولكنه لم يحفل بها ، بل مضى ميمما شطر دار رئيسه الانجليزى ، ولم يعد منكمشا تحت تأثير الخوف ، بل سار رافع الرأس ، معتدا بكرامته ، وعلى اساريره سمات عزيمة حديدية .. كان قد أصبح رجلا آخر .. **وبدلا من ذلك الموظف الحكومى الضعيف ، الذابل ، الشاحب ، تحول الى رجل موفور النشاط والشجاعة .. الى مخلوق قوى ، يسير فى عزيمة واصرار .**

وعرج — فى طريقه — على دار أحد أصدقائه ، فاستعار منه عصا متينة ، ثم استأنف سيره الى دار « الصاحب » .

وكانت الساعة التاسعة مساء ، عندما بلغها .. وكان « الصاحب » جالسا الى مائدة العشاء ، ولكن « فاتح شاند » لم يشأ ان ينتظر ريثما يفرغ من عشائه . فما ان أتم خادم المائدة تقديم الطعام ، وعاد الى المطبخ ، حتى رفع « فاتح شاند » الستار ، ودخل غرفة المائدة .. وكانت الحجرة غارقة فى فيض من النور الكهربائى ، وقد كسيت أرضها ببساط جميل وغال ، لم ير له فاتح شاند مثيلا ، حتى فى يوم زفافه .

ونظر اليه « الصاحب » بعينين تفيضان حنقا ، وصاح : « اخرج من هنا ! .. لماذا دخلت بدون اذن ؟ »

فرفع « فاتح شاند » عصاه ، وقال : « الم تطلب الملف ؟ .. لقد جئتك بالملف ، فافرغ من طعامك ، وسأريك اياه . ولسوف أجلس هنا حتى تتم عشاءك . فكل بالهناء والشفاء ، اذ ربما كان هذا آخر طعام يدخل جوفك ! »

وبهت « الصاحب » للهجة فاتح شاند ، فتأمله وفى عينيه مزيج من الخوف والغضب .. وادرك ان الرجل الماثل أمامه ، رجل بلغ به اليأس أقصاه ، فلم يعد يحفل بشىء . ولقد كان ضعيفا — من الناحية البدنية — ولكن من الواضح انه جاء مستعدا لكى يرد الصاع صاعين .. لا ، بل انه جاء يلقمه بدل الحجر حديدا !

وشعر « الصاحب » بخوف يتسرب الى نفسه . ومن

السهل عليك أن تضرب كلبا ، طالما ظل منكمشا لا يزمجر ، أما حين ينبح فى وجهك ، فانك لا تلبث ان تفقد اطمئنانك ..
وهذا عين ما كان عليه « الصاحب » .. كان صلبا ، قاسيا ، طالما كان مطمئنا الى أن فاتح شاند على استعداد لأن يتحمل سبابه وركلاته فى صمت .. أما الآن ، فقد كان فاتح شاند فى حال أخرى ، وكان يراقب كل حركة من حركاته بعينين يقظتين ، كعينى القط .. ومن ثم فقد انهارت صلابة « الصاحب » ، وتخلى عنه اعتداده بنفسه .. وبات موقنا من ان سبة واحدة تنطلق من فمه ، كفيلة بأن تعود عليه بضربة من تلك العصا !

***

ولقد كان بوسع « الصاحب » ان يأمر بطرد فاتح شاند .. وكان فى طوقه ان يرسله الى السجن ، ولكنه ادرك ان تصرفا من هذا القبيل ، لن يمضى دون ان يثير حوله فضيحة ، ويجلب عليه شيئا من المتاعب . لذلك فقد آثر ان يلين ، وان يلجأ الى الحيلة ، كرجل بعيد النظر . فقال :

ـ يبدو أنك مستاء منى ياعزيزى . فما الذى ساءك ؟ .. أتراني قلت شيئا مس شعورك ؟

ـ لقد شددت اذنى منذ نصف ساعة ، وكررت مائة مرة اننى احمق ، خنزير .. فهل من المعقول ان تكون قد نسيت بهذه السرعة يا صاحب ؟

ـ أنا شددت اذنيك ؟ ! .. لا بد انك تمزح . اتراني قد جننت حتي أفعل ذلك ؟

ـ ان الساعى شاهد على ذلك .. كما ان خدمك كانوا يشاهدون ما حدث .

ـ ومتى ترانى فعلت ذلك ؟

ـ منذ نصف ساعة فقط . فقد أرسلت تستدعينى، فلما جئت شددت أذنى وركلتنى .

ـ أصحيح هذا ؟ ! .. الواقع يا بابو اننى .. لا بد لى من أن أعترف بأننى كنت ثملا بعض الشىء . لقد أفرط الساقى فى تقديم « الويسكى » لى . ولست اذكر شيئا مما حدث ، على الاطلاق .. يا الهى ! .. احقا فعلت هذا ؟

ـ لو أنك أطلقت الرصاص على ، وأنت ثمل ، أفما كان هذا كفيلا بقتلى ؟ .. واذا كان كل شىء يغتفر للسكران ، فأنا السكران فى هذه المرة ! .. والقرار الذى أصر عليه ، هو أن تمسك أذنيك ، وان تطلب منى الصفح ، وان تقسم انك لن تعامل الناس ـ بعد اليوم ـ على هذا النحو . فان لم تفعل ، فسوف ألقنك درسا . وحذار من ان تحاول ان تتحرك من مكانك ، فسوف أهشم رأسك فى اللحظة التى تنهض فيها عن مقعدك . هيا ، أمسك اذنيك !

وحاول « الصاحب » ان يتضاحك ، وقال : « لعمرى يا بابو ، انك لظريف مهذار ، ألست كذلك ؟ .. ومع ذلك، فاذا كنت قد قلت لك شيئا فيه نبو أو جفوة ، فأرجو أن تغفره لى ! »

ولكن فاتح شاند لوح بعصاه فى الهواء ، وصاح : « امسك اذنيك ! »

ولم يكن الانجليزى راغبا فى ان يؤدى هذه العملية المهينة بسهوله ، فقفز عن مقعده ، وحاول ان يمسك بالعصا التى أطبقت عليها قبضتا فاتح شاند ، ولكن فاتح شاند كان متأهبا لمثل هذه المفاجأة . وقبل ان يبرح « الصاحب » المائدة ، انهال فاتح شاند على رأسه بالعصا مرة واحدة . ودار رأس « الصاحب » ، وتدافع الطنين الى اذنيه . ومكث لحظة ممسكا رأسه بين يديه ، ثم قال : « لسوف أطردك من منصبك ! »

— لست أحفل . ولكننى لن ابرحك الليلة حتى تمسك اذنيك بيديك ، وتقسم على انك لن تتصرف مع الناس مثلما تصرفت معى . واذا لم تفعل هذا فورا ، فسوف تهوى الضربة الثانية على ناصيتك !

ورفع العصا ، وهو يقول ذلك ..

ولم يكن ((الصاحب)) قد نسى بعد الضربة الاولى ، فوضع يديه على اذنيه لفوره ، وقال : ((هاأنذا قد فعلت .. أيرضيك هذا ؟))

— ألن تسب الناس بعد اليوم ؟

— لا !

— تذكر اننى لن اكون بعيدا ، اذا انت عدت الى هذا يوما !

فقال الصاحب بلغة هندستانية ركيكة : « ابدا لن أسب أحدا أو أصرخ فى وجهه ! »

ــ حسنا .. الآن أبرحك ، ولست بعد اليوم موظفا فى مكتبك . وسأرسل اليك فى غد استقالة مكتوبة ، اثبت فيها اننى لم أعد راغبا فى العمل تحت امرتك ، لسوء اخلاقك .

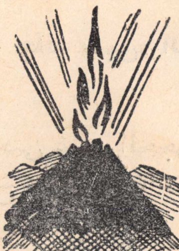
ــ ولكن ، ما الداعى الى الاستقالة ؟ .. اننى لن أفصلك عن العمل .

ــ ولكننى لا أريد أن أعمل تحت امرة جلف سيىء الخلق مثلك .. وهذا هو السبب .

وما ان قال فاتح شاند هــذا ، حتى غادر الحجرة ، وشرع فى السير نحو داره وقد بات مرتاح البال ، يملأ نفسه شعور بنصر حقيقى ، وبحريته الشخصية ..

أبدا لم يتذوق فى حياته مثل هذه السعادة !

الخالدون



عظماء .. فى غير السياسة

عزيزى القارىء ..

فى الأعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب قصص حياة : « لويس باستير » .. و « اميل زولا » .. و « ماركونى » .. و « تشايكوفسكى » .. و « مصطفى كمال » .. ثم « شوبان » .. و « جى دى موباسان » .. و « محتار » و « تشارلس ديكنز » و « بيتهوفن » و « موسولينى » و « شيلى » .. و « بلزاك » و « بودلير » و « دستويفسكى » و « جيته » و « موليير » و « كونفوشيوس » و « الكسندر ديماس » و « ميكيل انجلو » ثم « ارسطو » و « اينشتين » و « فولتير » و « بيكاسو » و « البرت شفايتزر » وغير هؤلاء من الخالدين فى شتى ميادين الأدب ، والطب ، والاختراع ، والفنون .. الخ

وفيما يلى أقدم لك قصة حياة العالم الذى اكتشف « البنسيلين » ..

عزيزى القارىء :

الرجل الذى ألخص لك ــ فى هذه المرة ــ سيرته ، مثال للعصاميه النبيلة .. مثال للرجل الذى بدأ من أسفل السلم ، وانتهى الى قمة المجد . ولكنه لم يفعل ذلك يوما من أجل نفسه ، وانما كانت غايته ــ دائما ، وعلى طول الخط ــ أن يكون نافعا لغيره ، قدر نفعه لنفسه ..

كان فلاحا ابن فلاح ، وكانت أقصى أمانيه ــ فى صغره ــ أن يصبح فلاحا كأبيه ، وأن يعيش فى ريف اسكتلندا الجبلى ، يفلح الارض ، ويرعى الاغنام ، ويصيد السمك .. ولكن القدر كان قد أعده لرسالة أهم وأعظم .. رسالة تخفيف آلام البشرية والقضاء على الميكروبات التى تبتلى البشر بأقسى الأمراض الفتاكة ..

ذلك هو « الكسندر فليمنج » ، الذى اكتشف عقار «البنسيلين» السحرى .. ولقد روينا لك قصة «البنسيلين» فى عدد سابق من « كتابى » ، واليوم نروى لك قصة مكتشفه ، وهى قصة ترسم للكثير من الشباب سبيل المجد والنجاح .

كشف يفوق الاكتشافات الذرية

• **اذا** كان التوصل الى تفتيت الذرة قد أدى الى انقلاب حيوى عالمى ، فان التوصل الى العقاقير التى يطلقون عليها « الاعاجيب » ، أو « العقاقير السحرية » ، كان انقلابا آخر لايقل عن الأول أهمية ، ان لم يفقه قيمة . فبينما اكتنف الاكتشافات الذرية غموض مشوب بالخوف والتشاؤم ــ نظرا لجنوح بعض الدول الى استغلالها فى أعمال التدمير

والقضاء على الحياة البشرية ـ نجد أن « المضادات الحيوية » قوبلت بتحبيذ عالمى ، واعتبرت من أهم الانتصارات فى المعركة الدائرة ـ منذ الخليقة ـ لقهر المرض ، وصون الحياة البشرية ..

ولقد كان اكتشاف « البنسيلين » أعظم كشف طبى جاء بعد توصل العالم الفرنسى « باستير » الى اماطة اللثام عن الدور الذى تلعبه الميكروبات فى خلق الأمراض .. وكان الفضل الأول فيه راجعا الى عالم بكتريولوجى اسكتلندى ، هو **« الكسندر فليمنج »** .

كان يرجو أن يصبح مزارعا

• **ولد** « فليمنج » فى مزرعة (لوشفيلد) ، بدارفيل ـ بمقاطعة (ايرشاير) الاسكتلندية ـ فى ٦ أغسطس سنة ١٨٨١ . وكان أصغر أخوة ثمانية ، أنجبهم مزارع اسكتلندى من زوجتين ، خلفت ثانيتهما الاولى بعد وفاتها . وكان « ألكسندر » ـ بطبيعة هذا الوضع ـ آخر من أنجبتهم هذه الثانية . وقد بلغ من حب أبيه اياه أنه كان يحرص على أن يستبقيه الى جواره . وقد راوده الأمل فى أن يجعل منه مزارعا ومربيا للاغنام ، مثله .

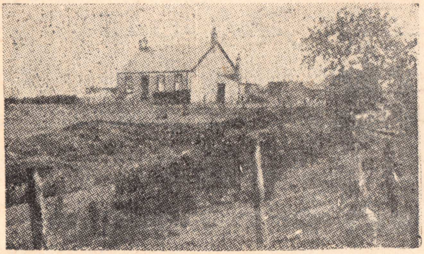
وكان « ألكسندر » ـ فى صغره ـ يطمع فى ذلك أيضا . فقد كان يسعد بالحياة فى الريف ، وبتطهير أرض الحقل من بقايا الثمار والجذور ، وبصيد السمك ونصب الفخاخ للارانب البرية ، وبالانطلاق فى جنبات الريف وراء الاغنام . وقد وصف هذه الفترة ، فى ذكرياته ، قائلا :

« كنا نعتبر أنفسنا ـ ونحن نعيش فى أقصى الاطراف ، وعلى حافة منطقة المستنقعات ـ أحسن حالا من الاولاد الذين يعيشون فى المدينة . فهم لم يكونوا يعرفون كيف يتسلقون المرتفعات ، ولا كيف يعثرون على بيض الطيور الغريبة .. ولقد كان من الممكن أن أمكث فى الريف ، وأن أصبح مزارعا .. لا فى (لوشفيلد) ـ لأن أخى الأكبر «هيو» كان يتولى أمرها ـ وانما فى أية مزرعة مجاورة . وكان من المحتمل أن أكون مزارعا صالحا جدا ، وأن اقتنى ابدع قطيع للماشية فى آيرشاير بأسرها » !

أم تنقذ مستقبل أسرة

◆ **وكانت** أول مدرسة انتظم « الكسندر » فى سلك تلاميذها ، مدرسة ريفية متواضعة ، فى كوخ بسيط من الخشب ، تلقى فيها مبادىء القراءة والكتابة والحساب . ولم يكن قد قضى فيها أكثر من عامين ، عندما توفى أبوه وهو فى السابعة من عمره .

وآلت شؤون المزرعة الى « هيو » ، الأخ الأكبر لالكسندر .. وكان أخوه الثانى « توماس » قد اتجه الى دراسة الطب ـ فى حياة أبيه ـ وتخصص فى أمراض العيون .. ولم تنصب نكبة وفاة الأب ، الا على صغار أولاده ، اذ لم يكن ثمة مال كاف للانفاق على تعليمهم . **بيد أن القدر كان قد حباهم بأم مكافحة ، ذات عقلية عملية وارادة فولاذية . فأقبلت على ادارة المزرعة مع « هيو » ، وعلى تهيئة حياة طيبة للاسرة التى خلفها زوجها .**



فى هــذا الكوخ
كانت أول مدرسة
التحق بها فليمنج
فى طفولته

وكانت أما حكيمة ، لطيفة ، أسبغت على الجميع عطفها ورعايتها ، حتى انها كانت تلاعب الصغار ، وتنمى ميولهم وتعنى بها . وقد لاحظت أن أهم ميل لدى « الكسندر » تمثل فى دراسة الطبيعة ، فكانت أسعد الساعات لديه ، هى تلك التى يسوق فيها الاغنام الى المراعى الجبلية .

ولكنهـا كانت تريد له ان يتعلم . فمـا لبثت أن ألحقته بمدرسة بلدة (دارفيل) ، التى كانت تقع على مسافة أربعة أميال من المزرعة .. فكان الصبى الصغير يقطع هـذه المسافة مرتين ــ فى الصباح المبكر ، وفى الأصيل ــ سيرا على قدميه ، فى كافة الأحوال الجوية . ولكنه لم يشك أو يتذمر ، بل كان يجد فى السير على قدميه متعة وصفها ــ فيما بعد ــ بقوله ان المشى « كان يتيح لى الفرصة كى ألتقط كثيرا من المعلومات الطريفة عن الطبيعة ، ما كنت لألم بها بطريقة أخرى » !

وبعد أن قضى أربعة أعوام فى (دارفيل) ، انتقل الى معهد كيلمارنوك ، حيث مكث عامين آخرين . وقد اضطر ــ فى سبيل ذلك ــ الى الاقامة فى (كيلمارنوك) ، فلم يعد يرى

المزرعة والأهل الا فى العطلات الاسبوعية .. وفى هذا المعهد الذى تعلم فيه قبله فريق من نوابغ الشعر والأدب فى انجلترا ـ مثل « روبرت بيرنز »، و« روبرت لويس ستيفنسون » ـ أبدى « الكسندر » من التفوق ما حدا بأمه الى أن تقرر ايفاده ـ حين بلغ الرابعة عشرة من عمره ـ الى لندن، ليستكمل الدراسة فى معهد العلوم التطبيقية فى شارع (ريجنت) .

انقلابات تلم بحياته

• **وكان** رحيله الى لندن، أكبر انقلاب فى حياته حتى ذلك الحين .. والحق انه ما كان راغبا فى أن يهجر ريفه الحبيب، ليقيم فى المدينة الكبيرة . ولكنه لم يكد يذهب اليها، ويقيم مع أخيه « توماس » ـ الذى كان قد أصبح طبيبا للعيون موفقا ـ حتى أحبها، وارتاح الى العيش فيها . بيد أنه لم يسعد بالدراسة فى المعهد الذى ألحق به، اذ تبين أن المعلومات التى كان يتلقاها فيه، معلومات حصل عليها هو بجده واجتهاه قبل ذلك بعامين !

وتخرج بعد سنتين وهو غير راض عن دراسته . وما لبث أن وجد عملا كتابيا فى شركة للملاحة فى لندن . ولم يكن مثل هذا المنصب غاية آماله، ولكنه كان مضطرا الى العمل ليكسب عيشه . وقد وجد أن مهامه كئيبة، وأن ساعات العمل طويلة، بينما كان المرتب ضئيلا .

على انه كان ذا ضمير حى، فراح يبذل قصارى جهده فى اداء عمله .

وفى تلك الأثناء ، قامت « حرب البوير » ـ فى جنوب أفريقيا ـ فانضم « الكسندر » الى منتدى للشباب الاسكتلندى فى لندن ، واشترك فى التدريبات التى كان ينظمها هذا المنتدى ، وفى المعسكرات السنوية التى كان يقيمها . فبرع فى الرماية ، كما حذق السباحة وأصبح خبيرا بها ، وبرز فى فريق « كرة الماء » فى الفرقة .

وكانت هوايته للسباحة و « كرة الماء » خير عون له ، عندما قرر ـ بعدأربع سنوات من العمل فى شركة الملاحة ـ ان ينفض يديه من عمله ، وأن يصبح طبيبا .. ولقد حفزه الى ذلك أن أخاه « توماس » كان يمضى موفقا فى مهنته الطبية ، كما أن شقيقين آخرين له ـ هما « جون » و « روبرت » ـ كانا يدرسان فنون البصريات .

كيف اختار مدرسة الطب التى التحق بها

• **وكان** هذا القرار الذى اتخذه « الكسندر » ـ وهو فى العشرين من عمره ـ بشير انقلاب آخر جديد فى حياته .

ويتحدث فليمنج عن هذا الانقلاب بقوله : « كانت ثمة اثنتا عشرة مدرسة للطب فى لندن ، فاحترت فى اختيار أيها . ولكننى كنت قد اشتركت فى مباريات لكرة الماء ، ضد مدرسة « سانت مارى » .. ومن ثم اخترت هذه المدرسة ! »

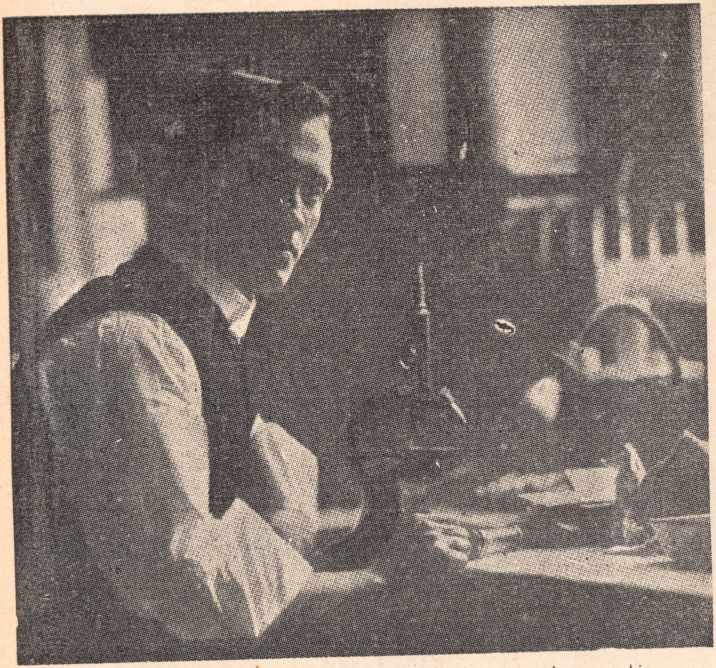
واستطاع أن يظفر بمنحة دراسية اذ تفوق فى امتحان العلوم الطبيعية عندما تقدم طالبا الالتحاق بالمدرسة . وسرعان ما أصبح من أبرع الطلبة الذين شهدتهم هذه المدرسة والمستشفى الذى ألحقت به .

وهناك، درس « فليمنج » على يدى العالم البكتريولوجى الأشهر « آلمورث رايت » . فتعلم كيف يرقب كل شىء بعين فاحصة مدققة ، وكيف يربى لنفسه ذاكرة قوية لا تتسرب منها المعلومات ، وكيف يصل الى خير النتائج مع الاقتصاد فى الجهد والنفقات .. ولعل فطرته الاسكتلندية ساعدته كثيرا فى اكتساب الصفة الاخيرة ، فقد وصف نفسه مرة بقوله : « اننى مجرد اسكتلندى أريب ، لايستطيع أن يفرط فى أى شىء مهما يكن تافها » !

اجتياز الامتحانات فن اكتشفه فليمنج

• وساهم أثناء الدراسة فى كل الوان الرياضة تقريبا ، كما اشترك فى كل مباراة علمية ، وظفر بكل جائزة ومنحة دراسية ، لاسيما فى علم وظائف الاعضاء ، وعلم الصحة ، والطب ، وعلم الامراض ، وعلم الاقرباذين ، وما اليها . وهو يعزو هذا الى اجتهاده ــ من ناحية ــ والى تمكنه من « فنون الامتحان » ، من ناحية أخرى .. « فان الذين يعرفون الحقائق ، كثيرا مايفسدون فرصهم فى الفوز . وذلك بالاسهاب فى الكتابة، وايراد تفصيلات غير ضرورية » .. **كما أنه وجد أن الخط الحسن يساعد على استمالة الممتحن ويخفف من ضيقه .. « ومن ثم يصبح أكثر استعدادا لأن يمنحك مزيدا من الدرجات » !**

وهكذا مضى فليمنج فى دراسته موفقا ، حتى استطاع أن يتخرج فى سنة ١٩٠٦ . ثم ظفر ــ بعد ذلك بعامين ــ ببكالوريوس الطب ، وبكالوريوس العلوم من جامعة لندن ،



فليمنج الشاب فى أول معمل اجرى فيه تجاربه

مع درجة الشرف فى خمسة موضوعات . ومنح « الميدالية » الذهبية ، التى كانت مخصصة لأحسن طالب فى الاثنتى عشرة مدرسة الطبية .

وفى سنة ١٩٠٩ ، أصبح زميلا فى الكليةالملكية للجراحين . وقد كتب أحد الأساتذة الذين امتحنوه ، فى تقريره عنه :

« اننا نرى انه سيظفر بمكانة عظيمة مبرزة فى المستقبل » .

على انه لم يقتصر — فى هذين العامين — على التحضير للشهادات ، بل انه عين فى غداة تخرجه — فى أغسطس سنة ١٩٠٦ — مساعدا لأستاذه « آلمورث رايت » ، فى قسم الامصال فى مستشفى « سانت مارى » .. ومن الطريف أن يوم تسلمه هذا المنصب صادف يوم احتفاله بعيد ميلاده الخامس والعشرين !

وكان العمل البكتريولوجى — فى ذلك الحين — من أسوأ فروع الطب ، فلم يكن فى وسع فليمنج أن يظفر بمرتب يزيد على مائة جنيه فى العام ، فى حين أنه كان يستطيع أن يحصل على أضعاف ذلك ، لو انه انصرف الى ممارسة الطب والجراحة . ولكنه آثر العمل البكتريولوجى لفرط تأثره بشخصية أستاذه ، الذى كان يجرى تجارب هامة فى ميدان القضاء على الميكروبات الوبائية .. كما ان البحوث والتجارب كانت تلذ له وتتسق مع ميوله واستعداده الفطرى .

.. فى الطريق الى المجد !

• **وكان** « رايت » منصرفا — فى تلك الفترة — الى محاولة الوصول الى أمصال تقضى على التلوث بالبكتريا ، فأقبل « فليمنج » على مشاركته أبحاثه بهمة . وما ان بلغ الثامنة والعشرين من عمره ، حتى كان قد فاز بجوائز متتابعة فى تشخيص وعلاج الأمراض .. وسرعان ما اكتسب ثقة بنفسه ، الى حد أنه أصبح يجسر على أن يصارح أستاذه بانتقاداته ، اذا رآه يسلك مسلكا خطأ فى تجاربه .

وعلى مر الأيام ، تبين « رايت » فى تلميذه ذكاء وسداد رأى ، فأخذ يرحب بآرائه ، ويستشيره ، وينصت اليه.. وهكذا بدأت مواهب العالم الشاب تتفتح ، مبشرة بمستقبل باهر فى عالم الاكتشافات الطبية ، وهو فى سن كان معظم أقرانه منصرفين فيها الى اللهو والاستمتاع بمباهج الحياة !

وليس معنى هذا أن « فليمنج » كان يقصر حياته على العمل .. صحيح أنه كان يقضى أكبر شطر من وقته فى المعمل ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين ممارسة هواياته الرياضية .. حتى انه كان ذا دور هام ـ ظل يفخر به طيلة حياته ـ فى تمكين النادى الاسكتلندى اللندنى من الفوز بكأس « الديلى تليجراف » للرماية ، فى (بيسلى) ، فى يونيو سنة ١٩٠٨ .

كذلك انضم الى الماسونيين الاحرار ، كما انضم الى نادى شيلزيا للفنون . فقد كان يجد فى الرسم تسلية ترفه عنه عناء أعماله المعملية والطبية . ومن أطرف مايذكر ـ فى هذا الصدد ـ انه لم يكن يبتاع ألوانا ليستخدمها فى الرسم ، بل استبدل بالألوان المعروفة ألوانا اتخذها من مزارع البكتريا التى كان يربيها فى المعمل !.. **وكان أصدقاؤه يداعبونه ، اذ يطلقون على لوحاته : « حدائق فليمنج الصخرية البكترية » !**

وقضى فليمنج ثمانية أعوام فى بحوث متواصلة ـ فى « سانت مارى » ـ ثم .. أعلنت انجلترا الحرب فى ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ ، قبيل عيد ميلاده الثالث والثلاثين بيومين اثنين .

معمل طبى فى .. حمام !

• **وكان** قيام الحرب العالمية الاولى ، سببا فى أن قدر لفليمنج أن يبرح انجلترا لأول مرة فى حيـاته . فلقد دعى سير « آلمورث رايت » الى أن يقيم معملا فى (بولونى) بفرنسا، لبحث مسألة تقيح وتلوث الجروح التى كان الجنود يصابون بها فى الحرب .. وكانت هذه المسألة ذات خطورة فى نظر السلطات ، اذ أن المتفجرات الشديدة ـ التى استخـدمت لأول مرة اذ ذاك ـ كانت تحدث اصابات خطيرة .

ولم يشأ « رايت » أن يتخلى عن تلميذه ومساعده . ومن ثم أصبح الشاب الاسكتلندى « فليمنج » ضابطا فى السلاح الطبى الملكى البريطانى ، ورحل مع أستاذه الى (بولونى) ، حيث أتخذ من « كازينو » المدينة مستقرا له !

وكان «الكازينو» مزدحما ـ الى درجة تنطوى على الخطورة ـ بالمصابين بأبشع الجروح ، وبأكثر الآلام استعصـاء على العلاج .. وكانت « الغنغرينا » ـ التقيح السام ـ تسرى فى أجساد الكثيرين منهم . أما المعامل التى كان عليه أن يعمل فيها على اكتشاف مايخفف آلام هؤلاء التعساء ، فكانت ـ كما وصفها فليمنج ـ **« تتـألف من حمـامين تحت سـطح الارض ، كانت قاذورات «المجارى» تطغى عليهما أحيانا» !**

ولكن هذا لم يؤثر فى نفس فليمنج بقدر ما أثر فيها جحيم المعارك ، وتلك الخسائر الفادحة التى كانت تنزل بالنفوس والارواح دون مادعا .. وراح يتعـذب وهو يرى الرجال يقضـون نحبهم من جراح كان من الممكن أن يبرأوا منها ، لولا أن المواد التى كانت تستخدم فى تطهيرها ، لم تكن تقوى على

القضاء على « البكتريا » التى تسبب التسمم . ومع أن التقارير التى كان يرسلها حفلت بالشكوى من هذا القصور، الا انه لم يصادف بادرة تشجعه وتخفف من آلامه النفسية.

يكرس حياته للقضاء على البكتريا

• **وقضى** فليمنج فترة الحرب وهو يشعر بأنه قد أخفق فى مهمته كرجل وكل اليه عبء شفاء المعذبين .

وكان فى السابعة والثلاثين من عمره ـ وقدأصبح «كابتن» فى الجيش ـ عندما وضعت الحرب أوزارها ، وسرح من الخدمة العسكرية . فعاد الى (لندن) ، وقد عقد العزم على أن يكرس حياته لفن تحصين الاجسام ضد الجراثيم الفتاكة ، أملا منه فى ان يهتدى الى شىء يكون ذا مفعول حاسم يقضى على « البكتريا » التى تدمر الانسجة السليمة فى جسم الانسان .

وكانت الخبرة والتجارب قد اقنعته بأن خلايا الجسم ذاتها هى التى يجب أن تكون أهم عنصرفى محاربة «البكتريا» .. كان يرى أن « المناعة الطبيعية » ، المنبعثة من الجسد ذاته ، هى أهم وأعظم مايدفع عن هذا الجسد شر الميكروبات الدخيلة . ومن ثم عكف على بحوثه فى قسم الامصال بمستشفى « سانت مارى » ، دون أن يشغل عن ذلك بمهمة جديدة نيطت به ، اذ عين محاضرا فى مادة « البكتريولوجى » فى المدرسة الملحقة بالمستشفى .

الزوجة التى أكملت شخصيته

• **وتزوج** « فليمنج » ــ فى تلك الاثنــاء ــ من « ســارا ماريون مكيلروى » ، الاخت التوأم لزوجة أخيه « جون » .

ولقد كان فليمنج وسارا نقيضين ، اذ كانت هى مرحة ، لعوبا ، ضاحكة ، كثيرة المزاح .. فى حين انه كان خجولا ، يميل الى التحفظ والرزانة ، مقلا فى كلامه . على أن هــذا التناقض لم يؤد الى تنافر بينهما ، وانما كانت نتيجته عكس ذلك . فقد أوجد نوعا من التعويض ، جعل كلا من الزوجين مكملا للآخر !.. **فكان الزواج بداية استقرارفى حياة فليمنج، مما جعله أكثر انصرافا الى أداء الرسالة التى عشقها !**

كذلك لم تشغله كل هذه التطورات ــ التى ألمت بحياته ــ عن حبه للريف ، حتى أنه ابتاع منزلا ريفيا فى (بارتون ميلز)، اعتاد أن يذهب اليه مع زوجته فى العطلات الاسبوعية ، والعطلات الصيفية . وكان يجــد متعة كبرى فى أن يعمل بنفســه فى حديقة هــذا المنزل ، ويفخر كل الفخر بما كان يستنبته فيها من زهور وخضر .

وكان من الهوايات المحببة الى نفسه ، أن يســابق القطار الريفى بسيارته التى كان يقودها بنفسه !

ذات صباح .. فى سنة ١٩٢٨

• **ومضى** فليمنج فى بحوثه قــدما ، محــرزا عــددا من الانتصارات العلمية. وأخذ ينشر بحوثا قيمة فى علم الامراض، كان من أهمها البحث الخاص بمادة « اللايســوزيم » التى

توجد فى العصارات والانسجة . وقد كان هذا «اللايسوزيم» هو المرحلة السابقة على اكتشاف « البنسيلين » ، وهو الذى أوحى به .. فهو عصارة متخمرة ، ذات آثار فعالة تؤدى الى سرعة تحلل البكتريا .

وكان « فليمنج » قد استكمل شخصيته ونضجه ، عند ما لاحظ فى معمله ظاهرة غريبة ، فى احد أيام صيف سنة ١٩٢٨ .. كان اذ ذاك فى السابعة والاربعين من عمره ، معنيا بملبسه وحركاته ، رقيق الكلام ، خافت الصوت ، وقد دب المشيب فى شعره .. وكان قد اعتاد أن يترك فى معمله عددا من الاطباق الزجاجية الضحلة (الجفنات) ، التى تستخدم فى المعامل لمزارع الميكروبات .. وفى ذلك الصباح - من صيف سنة ١٩٢٨ - لاحظ فليمنج أن العفن قد تكون على سطح طبق احتوى على عينات من البكتريا العنقودية .

ولم يكن تكون العفن على مزرعة للبكتريا العنقودية هو الظاهرة الغريبة التى ادهشت فليمنج ، **وانما كان الغريب هو أن فليمنج تبين أن المنطقة التى أحاطت بالعفن كانت خالية من البكتريا العنقودية** .. مما ذكره بمفعول مادة « اللايسوزيم » ، ومما أوحى اليه بأن فى العفن مادة مجهولة قتلت الميكروبات التى كانت حية .

واسرع فليمنج بفحص العفن تحت « الميكروسكوب » ، فشاهد مفعوله أثناء سريانه . واستطاع أن يتبين عناقيد البكتريا وهى تتضاءل .. وقد كتب - بعد ذلك - يقول : « ولم يكن ثمة ما هو أكثر يقينا من هذا .. فما ان رأيت

البكتريا تتلاشى ، حتى أيقنت من أننى أوتيت مفتاح أقوى مادة علاجية استخدمت ــ حتى ذلك الحين ــ للتغلب على آثار البكتريا فى الجسم البشرى » !

وأطلق على تلك المادة اسم « **بنسيلين** » ، لأنها نشأت عن عفن يسمى ــ فى علم النبات ــ «بنسيلينم» .. أو الفرشاة الصغيرة ، نظرا لأن أطرافه تتألف من وبر دقيق على شكل الفرشاة !

الحظ مع الجهد يكفلان النجاح

• **ولما** كان هذا النوع من العفن يتكون عادة على الجبن والخبز القديم ، لذلك بات من السهل انتاجه . وقد استنبته « فليمنج » ــ بادىء الامر ــ على الخبز والفواكه والجبن . ولكنه ما لبث أن تبين أنه يكون أفضل نموا على العصائر المستخرجة من اللحوم . وقد أثبتت التجارب قوة مفعوله .

وفى يونيو سنة ١٩٢٩ ، نشر فليمنج بحوثه وتجاربه هذه فى الصحيفة البريطانية لعلم الامراض التجريبى ، معلنا ما يعتبر من أهم تصريحات عصرنا الحالى : **« قد يكون البنسيلين مطهرا قويا يحقن فى الاماكن الموبوءة بالميكروبات ذات الحساسية البنسيلينية »** .

والواقع أن العفن الذى أخذ منه « البنسيلين » ، لم يكن مجرد « نصر علمى جاء عرضا » ــ كما وصفه فليمنج فى تواضعه ــ بل انه كان ثمرة بحوث ومشاهدات لا حصر لها ، اقترنت بظروف مواتية . **أى أن الحظ اقترن بالجهد** .

وليس أدل على ذلك من تقدير المحافل العلميـة والطبية الدوليه له ، مما ادى ـ فيما بعد ـ الى منح فليمنج جائزة نوبل .. وقد اضطر هذا العالم المتواضع الى الاعتراف بذلك، فى الخطاب الذى القاه حين تسلم هذه الجائزه ، اذ قال أن اكتشافه جاء « مجرد مصادفه ساقها الحظ بينما كنت منهمكا فى مسألة بكتريولوجية أكاديميـة ، لم تكن لها أية علاقه بالمواد المطهره ، ولا بالمضادات الحيوية .. واذا كان لى من فضل فهو اننى لم أهمل المشاهدة والملاحظة ، واننى تابعت البحث » .

ملعقة من الملح العجيب !

• ولقد قدر للبنسيلين أن يهمل لبضع سنوات عقب اكتشافه ، فقد كانت له صبغة تقربه من الدجل الطبى ، ومن الاعتقاد القديم الذى ورثه العامة عن أجدادهم بأن الخبز المتعفن يساعد على اندمال الجراح .

ومع أن فليمنج لم يكف عن اجراء البحوث على العفن ، الا انه اقتصد فى هذه البحوث ، فظلت طاقة « البنسيلين » العلاجية معلقة ـ وسط الشكوك والهواجس ـ عشر سنوات. على أن الرسالة التى كان فليمنج قد كتبها عن اكتشافه ، تركت أثرا كبيرا فى نفوس زملائه ، مما حدا باثنين من أساتذة جامعة اكسفورد الاخصائيين ، الى محاولة استخراج المادة العلاجيـة الجوهرية من العفن الذى اكتشـف فليمنج نفعه .



فليمنج يتلقى جائزة نوبل من ملك السويد

هذان العالمان هما الدكتور « هوارد فلورى » ، و زميله الالمانى الاصل ، الدكتور « ارنست بوريس تشين » . وقد وفقا ــ بعد جهود ومحاولات استغرقت اشهرا عديدة ــ الى استخراج مادة مركزة ، على شكل مسحوق ذى لون أصفر مشوب بدكنة بنية .. ولم تكن هذه الكمية الاولى من « ملح البنسيلين » تتجاوز ملء ملعقة شاى ، ولكن التجارب التى استخدمت فيها ــ على البكتريا أولا ، ثم على الفئران ــ أثبتت قوة مفعولها فى قتل البكتريا .

سيل من التقدير .. وزعامة الهنود الحمر !

• **وفجأة** أصبح البنسيلين أهم عقار تمس الحاجة بالدنيا اليه . ولكن الحرب العالمية الثانية كانت قد نشبت ، وأصبحت انجلترا مضطرة الى أن تركز كل جهد صناعى لديها على انتاج الاسلحة ، فلم يكن ثمة أمل فى انتاج كميات كافية من هذا العقار السحرى .

ولم يتردد الدكتور « فلورى » فى أن يطير الى الولايات المتحدة الامريكية، حيث استطاع أن يقنع السلطات والهيئات المختصة بالاقبال على انتاج « البنسيلين » بكميات كبيرة ، فى سنة ١٩٤٢ . **ولم ينقض عام حتى امكن بفضل هذا العقار الجبار انقاذ آلاف لا حصر لها من الارواح .**

وبدأ فليمنج يحظى بالتقدير والمجد ، فعين — فى سنة ١٩٤٣ — زميلا فى الجمعية الملكية ببريطانيا ، وانعم عليه فى العام التالى بلقب « سير » ، كما كوفىء — مع الدكتورين فلورى و تشين — بجائزة نوبل فى سنة ١٩٤٥ .

ولقد انهالت عليه مظاهر التكريم : فعين زميلا ، ورئيسا فى كثيرمن الجمعيات العلمية، وانتخب مديرا لجامعة ادنبره، ومنح حرية مدينة (بادينجتون) ، وحرية (شيلزيا) — التى كان يقيم فيها منذ سنة ١٩٢١ — وبلدة (دارفيل) التى تلقى فيها دراسته وهو صغير .. كما كرمته مدينة (فيرونا) الايطالية ، و مدينة (اثينا) وعدد من المدن اليونانية .. **بل لقد منح لقب « الزعيم الفخرى » لاحدى قبائل الهنود الحمر فى امريكا الشمالية .**

ولكنه كان يكره أن يكون محوطا بالدعاية ، وكان يشكو من أن ذلك يشغله عن اعماله .

وأسدلت الستار .. بعد ٧٣ سنة !

• **وفى** سنة ١٩٤٩ ، منى بموت زوجته بعد مرض طويل، فكانت هذه صدمة قاسية له ، جعلته يشعر بالوحدة والوحشة .

ومع ذلك ، فانه لم يلبث أن تزوج ثانية فى سنة ١٩٥٣ .. وكانت زوجته فى هذه المرة زميلة له ، هى الدكتورة « أماليا كوتسورى » ، البكتريولوجية اليونانية التى ظلت تعمل معه سنوات عديدة ، فى قسم الامصال بمستشفى سانت مارى . وكان فليمنج — فى تلك الاثناء — قد خلف استاذه رايت فى رئاسة هذا القسم .

على أن سعادته بزواجه الثانى لم تدم طويلا ، اذ أصيب فى ١١ مارس سنة ١٩٥٥ بنوبة قلبية مفاجئة ، أدت الى وفاته وهو فى الثالثة والسبعين من عمره .

عرض وتلخيص : الدكتور أنور لوقا



الحياة اليومية فى
مصر الفرعونية

صورة قلمية دقيقة وممتعة للحياة فى الاقليم الجنوبى
للجمهورية العربية المتحدة فى عهد رمسيس

للباحث المدقق المشهور : بيير مونتيه



عزيزى القارىء :

يبف السبيل الى استعادة صورة الحياة اليوميةفى مصر الفرعونيــة لا أنه ماض قريب منا ، بعيد عنا .. تشــعر به نفوسنا قبل ان تجتليــه عقولنا . وليس اختراق عشرات القرون للوصول اليه بالامر الهين ، ولكن «بيير مونتيه» ـ عالم الآثار المصرية وصاحب الحفائر والكشــوف الهامة فى الوجه البحرى ، والاستاذ السابق لمادة التــاريخ المصرى « بالكوليج دى فرانس » بباريس ـ يوفر علينا هذا العناء ، اد يبسط لنا خلاصه بحوته وبحوث المنقبين عن حضــارتنا العريقه ، ويبعث أمامنا اوجه المصريين القدماء وحركاتهم ، وهم يترددون تحت هذه الشمس الساطعة ، على ضــفاف هذا النيل الخالد، بين بيوتهم وحقولهم، ودواوينهم ومعابدهم .. انه يعرفنا بالمصرى والمصرية فى جميع اطوارهما : من الطفولة والشباب ، الى الابوة والامومة والشيخوخة .. بل ويصحبهما حتى القبر ، وما وراء القبر ! ولعل أهم ما يجذبنا الى قراءة هذا الكتاب الجامع هو حرصه على ان يعرض لنا حياة الشعب الواقعية ، لا ما عودتنــا عليه كتب التــاريخ المأثورة من سرد أمجاد الملوك وحدهم !

مشاكل البحث

ويبدأ المؤلف بالاشارة الى العقبات التى تعترض الباحث فى هذا الموضوع ، ولا سيما ضياع جانب كبير جدا من آثار الحياة اليومية ، منذ عصر كان القوم فيه يهتمون بشــئون الآلهة والموتى أكثر مما يهتمون بشؤونهم الخاصة ! .. فقد كانوا لايدخرون جهدا ولا مالافى سبيل تشييد منزل منمنازل

الحلد ، اى مقبرة من هذه المقابر الباقية ، فاذا هم يجلبون لها الاحجار الصحمه ، والمعادن الكريمه ، والاخشاب النفيسه ، على حين هم يعيشون فى بيوت من اللبن أو الآجر يموهون جدرانها بطلاء يحاكى تلك الاحجار والمعادن والاخشاب . ولذلك عمرت المعابد والاضرحه اطول مما عمرت البيوت والمدن .. واصبحت متاحفنا تضم من التوابيت واللوحات وتماثيل الملوك والالهه أكثر مما تضم من أدوات صنعها أهل ذلك الزمان لقضاء حاجاتهم .. وفاقت النصوص الدينية فى أوراق البردى نصوص القصص وأدب الدنيا !

على ان المؤلف — رغم هذا النقص فى المصادر — يحذر من الرجوع الى حذافير ماذكره عن المصريين رحالة اليونان وكتاب الرومان ، (من امثال هيرودوت و جوفنال) ، فقد خلطوا بمشاهداتهم ما سمعوا من روايات خرافية أو ما تخيلوا من أوهام !

وهكذا ظل أهل العالم الحديث يعتقدون أن المصريين القدماء كانوا يولدون فى لفائف اكفانهم وحنوطهم ! وحينما ترجم لهم « ماسبيرو » — فى صدر القرن العشرين — أول مجموعة من أغانى الغزل فى مصر القديمة ، كان من العسير عليهم أن يتصوروا على أرض الفراعنة فتيانا وفتيات فى مواقف الغرام ، يتبادلون الحب ، ويهيم بعضهم ببعض ! .. والحق ان حرص المصريين القدماء على تكريم الآلهة لم يكن الا وفاء منهم وشكرانا ، أى نتيجة لما حبتهم به الآلهة من رغد الحياة وخيرات العيش . ولنفس السبب ، أى لوفرة الحياة التى

عرفوها ، سعى المصريون الى أن يحملوا معهم الى القبور خيرات الأرض ومظاهر تلك الحياة الموفوره .

ويشير المؤلف الى صعوبة اخرى، هى ان التاريخ الفرعونى تاريخ طويل ، يكسو من الزمان بضعة آلاف سنة، لابد ان الحياة فيها قد تطورت وتغيرت . فالى أى حقبة من حقب هذه الحضارة تعود ؟ ان صور الحضارة المصرية لم تسرع الى التبدل والتحول كما اسرعت صور الحضارات الاخرى . فمن فضل النيل نشأت ، ونمت ، وبه ارتبطت على مر السنين ، فاحتفظت دائما بجوهرها ومعناها الاصيل . غير ان المؤلف المدقق يأبى ان ينظر الى هذا التاريخ على انه كتلة واحدة ثابتة عامة ، بل يتخير فترة منه يعالجها دون سواها، ويجعل عنوان كتابه : **« الحياة اليومية فى مصر فى عهد ملوك رمسيس »** .

وهو يعنى فترة قصيرة نسبيا ، تبلغ قرنين هما القرن الثالث عشر والثانى عشر قبل الميلاد ، (من ١٣٢٠ الى ١١٠٠) . فان مصر كانت قد قطعت اذا ذاك شوطا كبيرا من الحياة وراءها، وتم توحيدها، وعاد اليها الاستقلال والاستقرار بعد احتلال الهكسوس وافسادهم ، واحرزت جيوشها انتصارات باهرة ، فاتصلت بحياة الامم المجاورة ، وأتيح لعدد كبير من المصريين ان يعيشوا فى الخارج ، ولعدد أكبر من الاجانب ان يعيشوا فى مصر، وتم بناء أضرحة رائعة، وظهرت مدن عديدة على ضفاف النيل .

يعتمد المؤلف اذن على آثار طيبة قبل كل شيء : لا على



« رمسيس الثانى » .. كان عهده أزهى
عهود الملوك الذين حملوا اسم « رمسيس »
والذين وصف الكتاب الحياة اليومية فى مصر
تحت حكمهم

مقابر الملوك والملكات فحسب ، بل على مقابر الخاصة . ويكمل مصادره بأوراق البردى المعاصرة ، وفى متونها قصص ، وجدل ، ورسائل ، وقوائم تحصى جهود العمال ، وعقود ، ومحاضر ، بل ووصية رمسيس الثالث ... الخ

الحياة العائلية

ولنبدأ قراءة الكتاب بهذا الفصل الشائق عن الحياة العائلية . ولنبدأ استعراض الحياة العائلية بالحديث عن الزواج فى مصر القديمة :

رب العائلة رجل يملك بيته . ومن المترادفات فى لغة الفراعنة هذان التعبيران : « انشاء بيت » و « الاقتران بزوجة » . وينصح الحكيم « بتاح حتب » تلاميذه بالزواج وانشاء البيت فى الوقت المناسب . وفى قصة « الاخوين » الشهيرة ، كان للاخ الاكبر بيت وزوجة، وأما الاصغر الاعزب فكان يقيم لدى أخيه كالخادم يرعى الماشية وينام فى الحظيرة .

مقدمات الزواج

واذا كان للزواج اليوم مقدمات تسبق الاحتفال به ، فقد كانت له مقدماته كذلك فى تلك العصور الخالية . فهذا شخص ممن التحقوا بخدمة الملكة يخبرنا بأن الملكة قد زوجته احدى وصيفاتها ، ولما ماتت امرأته ، زوجته الملكة وصيفة أخرى . وهو يبدو سعيدا بلفتات الملكة اذ كانت تتكفل بنفقات العروس . لاشك اذن فى أن الوالدين أو أولى الأمر

كانوا يتدخلون فى تقرير الزواج . غير أن أغانى الحب التى نجدها على بعض البرديات المحفوظه فى متحفى (لندن) و (تورينو) تظهرنا على أن البنين والبنات كانوا مع ذلك يتمتعون بحرية كبيرة .

يصف الفتى جمال الحسناء التى رآها فملكت قلبه ، قائلا فى أغنيته : « ان شعرها أسود ، أشد سوادا من الليل ، وشفتيها حمراوان ، أشد حمرة من التمر الناضج ، وقد نهد ثدياها على صدرها » . انه متيم بها ، يلتمس وصالها ، ويسعى الى اجتذابها نحوه ، فيبتكر حيلة طريفة : « سأرقد فى البيت متمارضا ، فيحضر جيرانى لعيادتى . وتحضر معهم أختى (ولفظة الاخت أوالاخ تعبر عن الحبيب فى الهيروغليفية) . ولسوف تضحك من الأطباء ، فهى التى تعرف دائى » .

على أن حيلة هذا العاشق لا تنجح ، وانما هو يمرض حقا ولا يستطيع مغادرة الفراش ، فينشد : « سبعة أيام قد انقضت دون أن أرى أختى . لقد سرى السقم الى نفسى ، وأصبحت مشلولا داخل جسدى . ولم يعد جسمى يعرف نفسه . اذا عادنى نطس الاطباء ، فلن تشفينى أدويتهم . ولن يصل الكهنة الى نتيجة . فان دائى لم ينكشف . والذى حدث لى هو الذى من أجله أحيا . ان اسمها هو الذى يسندنى . ويبعث روحى مجىء رسلها وذهابهم . ان أختى تفيدنى أكثر من كل دواء . انها خير من الكتب . وشفائى زيارتها . فان بدنى ليصح لو رأيتها . تفتح عينيها فيتجدد جسدى . تتكلم فتملأنى القوة . أقبلها فتطرد الشر عنى .

ولكنها لم تبد أمامى منذ أيام سبعة » .

وأما الفتاة فيخفق قلبها لطلعة الفتى الوسيم . ونقرأ على صفحات أوراق البردى ما ورد على لسانها أيضا من غزل رقيق : « لقد أثار أخى اضطراب قلبى بصوته » . وها هى ذى تفكر فى مستقبلها معه ، وفى أن تستعين بأمها لتصل ما بينهما : «انه من جيران بيت أمى ، ولكنى لااستطيع أن أزوره . ما أطيبها أمى لو اهتمت من أجلى بهذا الامر !» . وهى تأمل ان يفهم الفتى عنها وأن يقبل عليها دون أن تكلف حياءها فى سبيل مفاتحته ما لا تريد : « ليته يرسل رسولا الى أمى ! يا أخى لقد نذرتنى الإلهة « أور » زوجة لك . تعال الى لأرى جمالك . ان أبى وأمى ليفرحان . والرجال جميعا يهتفون لك معا . انهم يصفقون لك يا أخى ! »

ويدعو « الاخ » بدوره تلك الالهة « أور » ويبتهل اليها أن تمنحه سؤل قلبه ، فهى صاحبة الافراح والولائم ، والموسيقى والغناء والحب .

وقد يلتقى الحبيبان ويتفاهمان ، ويبتهجان بالوصل ، كما تنبئنا هذه الاغنية التى تغنيها الفتاة : « مررت بجوار بيته . وجدت بابه مفتوحا . وكان أخى واقفا الى جانب أمه، ومعه كل اخوته واخواته، وقد سلب حبه قلوب جميع المارة فى الطريق . ان الحبيب الكامل لا شبيه له ، و « الاخ » نفس مصطفاة . نظر الى وأنا أعبر، فغمرنى الفرح وحدى . وما أشد ما يبتهج قلبى لان « أخى » قد رآنى . ليشأ الله أن تعرف أمك قلبى ! ضعى أيتها الالهة « نوبيت » هذه الغاية فى



عروسان .. من المصريين القدماء

قلبها !.. انى اجرى نحو أخى واقبله أمام رفاقه » . وفى أغنيات تالية تفضى الفتاة لاشجار الحديقة وطيورها بأسرار ما أضمرت من حب ، وهى تتخيل نفسها ربة بيت تارة ، ومتأبطة ذراع حبيبها تتنزه معه تارة أخرى .

واذا قامت العقبات فى طريق الحبيبين وحالت دون اقترانهما ، فهى عقبات صادرة عنهما ، لا عن الوالدين على

كل حال . فقد كان الآباء والامهات بوجه عام يقرون ما تتجه اليه عواطف بنيهم وبناتهم . ولقد خطر لفرعون يوما – كما تروى احدى القصص – أن يزوج ابنته « أحورى » قائد فرقة من فرق المشاة فى جيشه ، وان يزوج ابنه « نينوفيركا بتاح » ابنة قائد فرقة اخرى ، ولكنه فى آخر الامر زف الاخ الى أخته حينما فطن الى ان الحب يربط قلبيهما ..

ومن حق هذه المشكلة أن تستوقفنا : هل كان للاخ أن يتزوج أخته ، وللاخت أن تتزوج أخاها ؟

لا زواج بين الأخـــوة !

لقد لاحظنا فى شعر الغزل أن الفتاة تدعو حبيبها «أخى»، وهو يدعوها « أختى » ، الا أننا لاحظنا فى الوقت ذاته انهما لايقيمان فى بيت واحد ، وأن والدى الفتاة غير والدى الفتى . واذا تم قرانهما ، راح الزوج يدعو زوجته « أختى » دائما، وذلك تقليد جرى عليه المصريون منذ أواخر عهد الاسرة الثامنة عشرة، ولا نعرف على وجه التحقيق متى زال، ولعله اتصل فى ظل الدولة الحديثة بأكملها .وأما فى المحاكم ، فقد كان الناس يستخدمون الالفاظ المباشرة لاالشعرية : فالزوجة « زوجة » والاخ « أخ » ..

ومع ذلك فقدزعم بعض كتاب اليونان – وتبعهم بعض المؤرخين المحدثين – ان الزواج بين الاخوة والاخوات كان شائعا فى مصر القديمة . وقد يؤيد هذا الزعم أن بعض الفراعنة قد تزوجوا بالفعل أخواتهم . ولكننا نستطيع أن نردد هنا

ما قاله القضاة « لقمبيز » يوم سألهم هل يبيح القانون لكل امرىء أن يتزوج شقيقته ، فاجابوه بأن القانون لا يبيح ذلك ، وانما هناك قانون يبيح للملك أن يفعل ما يشاء . وحتى يومنا هذا ، لا توجد وثيقة واحدة تذكر ان مصريا — نبيلا كان أو متوسط الحال أو فقيرا — تزوج شقيقة له . وان كان يبدو أن زواج الخال بابنة أخته كان معترفا به ، بدليل اننا حين ننظر فى مقبرة «امنمحعت» فى مدينة (طيبة)، ترى « باكت أمون » — ابنة اخته — جالسة بجواره كما لو كانت قرينته .

حفل الزفاف

ولا تكاد الوثائق المخطوطة أو المنحوتة تحدثنا عن مراسم العرس . وحينما قرر فرعون — فى القصة التى أشرنا اليها — أن يزوج ابنه وبنته ، قال : « خذوا أحورى الى بيت « نينوفيركا بتاح » هذه الليلة ! واحملوا معها أجمل الهدايا من كل صنف ! » . وكذلك كان . والآن تتحدث الزوجة فتقول : « أخذونى عروسا الى بيت نينوفيركا بتاح . وقد أمر فرعون بأن يجلبوا معى مهرا كبيرا من الذهب والفضة قدمه لى جميع أهل البيت المالك » .

كان انتقال الفتاة اذن من بيت أبيها الى بيت الزوجية هو جوهر الاحتفال بالعرس . ولا يمكن أن نتخيل موكب العروس أقل زينة وصخبا من مواكب حملة القرابين وهم يطوفون فى المعابد ، أو من المواكب الجنائزية — اذ كان

المصريون يعتقدون أن دفن الميت ما هو الا نقله من مسكن الى مسكن . ولعل الخطيب كان يخرج لاستقبال الموكب ، كما خرج رمسيس الثانى لينتظر فى احد قصوره الواقعة بين مصر وفينيقيا قدوم ابنه الملك « خاتوسيل » التى قطعت فى البر — فى برد الشتاء — طرفا من آسيا الصغرى ، وسوريا بأكملها ، لتصبح زوجه الملك العظيم .

ولما كان المصريون يميلون الى كتابة العقود وتدوين الوقائع وتجميع الاوراق ، فقد كان العروسان فى أكبر الظن يمثلان أمام موظف يسجل زواجهما . واذا ذهبت امرأة متزوجه الى المحكمة ، دعيت باسمها يتلوه اسم زوجها ، مثل : « موتمويا » زوجة الكاتب « نسيامون » . وكان على الزوج أن يحضر ثلثى المال ، وعلى الزوجة أن تحضر الثلث فقط . فاذا مات أحد الزوجين تمتع الآخر باستغلال مجموع الثروة دون أن يكون له حق التصرف الا فى نصيبه الخاص .

ومن المحال ان لا يؤدى الدين دورا فى اتمام حدث خطير فى حياة الانسان كالزواج . **والثابت أن المصرى المتزوج كان اذا حج الى « أبيدوس » اصطحب زوجته دائما . وكان فى أكثر الاحيان يصطحبها اذا ذهب للصلاة فى المعبد** . ولذلك نستطيع أن نقدر — وان كنا لا نعتمد على وثيقة صريحة فى هذا الشأن — ان العروسين وأهلهما كانوا يدخلون معبد اله المدينة ، حيث يقدمون قربانا ، وينالون بركة .

وبعد ان يفرغ الكتبة والكهنة من مراسم الزواج ، كان للعروسين أن ينطلقا الى بيتهما الجديد ، وكان على المدعوين

أن ينصرفوا . غير اننا نرجح ـ والمصريون يحبون الولائم العائلية ـ أن الاهل كانوا يحتفلون بهذه المناسبة حول مائدة جامعة فيأكلون ويشربون ما طاب لهم من الطعام والشراب قبل أن يودعوا العروسين .

العائلة : وحدة عاطفية

ويقدم لنا الرسامون والنحاتون العائلة المصرية فى صورة أليفة تثير محبتنا واعجابنا . فكل من الاب والام يمسك بيد الآخر أو بخصره . وينضم اليهما الاطفال من كل سن . وقد شاع فى عهد «اخناتون» تصوير عواطف العائلة المالكة . فنحن نرى الملكة أحيانا جالسة على ركبتى زوجها ، كما نرى الملك والملكة يغمران اطفالهما بالقبلات ، والاطفال يجيبونهما مربتين بأيديهم الصغيرة على ذقن أبيهم أو أمهم . ولكن تصوير الحياة الخاصة فى مثل هذه الاوضاع الانسانية الاليفة قد انقضى بالقضاء على الثورة الفكرية التى قادها « أخناتون » . فمنذ قامت الاسرة التاسعة عشرة ، عاد الفن المصرى الى صرامته . ومهما يكن من أمر هذه الاطوار فى طريقة التعبير ، فنقوش المقابر تحفظ لنا من كل عصر صورة الزوجين معا ، وقد اتحدا الى الابد ، فى نفس الوضع الذى اتخذاه طيلة الحياة الدنيا .

المرأة عندهم مطبوعة على الكذب والخيانة !

ويقسو الادب القديم على المرأة قسوة واضحة . فالقصاصون والحكماء يرونها خفيفة متحالية نزقة ، لا تكتم

سرا ، وتميل بطبعها الى الكذب والخيانة .. نلمس ذلك فى قصة « الاخوين » : فنحن فى موسم البذار ، وقد انحسر الماء عن الارض ، والاخوان يعملان فى الحقل . تنفد البذور ، فيعود الاخ الاصغر الى البيت ليحضر كمية أخرى منها . وفى البيت تلمحه زوجة أخيه الاكبر ، وتشتهيه ، فتدعوه الى سريرها قائلة :

ــ تعال نقض ساعة مضطجعين معا . وسوف أصنع لك ملابس جميلة .

فيجيبها الفتى كالفهد الثائر :

ــ انك لى بمثابة الام ، وزوجك لى بمثابة الاب . آه ! لا ترددى مرة أخرى هذه الكلمة الخبيثة التى تفوهت بها ، أما أنا فلن أذكرها أبدا .

ويمضى تاركا الآثمة فريسة للهوان والحقد . وها هى ذى تكيد له ، فتقول لزوجها عند ما يعود ان أخاه قد أراد أن يغتصبها ، وان ثائرتها لن تهدأ ما لم يقتله قتلا !

وفى قصة أخرى ، نجد سيدة من طبقة النبلاء يروقها فتى وسيما فتهبه نفسها ، حتى اذا قضت منه وطرها ، هان عليها هذا العشيق ، وتخلت عنه . وراح الفتى يصارع الفقر حتى جاء يوما يستجديها ، فقالت لابنها ــ وهو غلام برىء ــ ان هذا المتسول أبوه .

هكذا تبدو المرأة فى القصص القديمة عاطلة من كل فضيلة ، على النقيض من الرجل الذى يبدو وفيا مخلصا سديد الرأى دائما . وينبغى علينا ألا نخلع على هذا الادب



الاسرة فى لوحات قدماء المصريين ، تمثل الالفة والمحبة .. وهنا يرى « امينوفيس » الرابع مع زوجته واولادهما .

حقيقة الواقع . فهذه القصص ذاتها تعرفنا بفرعون على انه رجل غريب الاطوار يستفتى فى كل صغيرة وكبيرة كتبته وسحرته ، مع اننا نعرف من الفراعنة فى التاريخ كثيرين كانوا أمثلة للشجاعة فى القتال وللحكمة فى سياسة الدولة .

كان تحقير المرأة اذن والتشنيع عليها من قواعد الكتابة القصصية . وقد حمل الينا التاريخ من اخبار النساء الفاضلات ما يكفى للرد على تلك المزاعم القاسية . فهذه لوحة — فى المتحف البريطانى — تحمل لنا ذكرى « تا — امحوتب » ، وهى زوجة ماتت فى ربيع الشباب ، كانت تطيع أباها ثم زوجها الذى شيعها فى احتفال كبير ودفنها فى مقبرة جميلة .

وفى متحف « ليد » بهولندا بردية تحفظ حديثا مؤثرا يوجهه زوج حزين الى زوجته التى اختطفها الموت . « لقد اتخذتك زوجتى عندما كنت شابا . وعشت معك . وارتقيت الى اعلى المناصب ولكننى لم اهجرك . لم اعذب قلبك . هذا ما فعلته حينما كنت شابا وحينما توليت جميع الوظائف العليا فى خدمة فرعون ، لم أهجرك ، بل كنت اقول : فلتشاطرينى هذا ! وكنت لا أقبل نصح كل امرىء يخاطبنى فى أمرك ، بل كنت اقول : اننى اتصرف حسب قلبك ! .. وانظرى ، حينما توليت تدريب ضباط جيش فرعون ، أرسلتهم يزحفون على بطونهم أمامك ، حاملين أصنافا مما طاب ليضعوها أمامك . ولم أخبىء عنك شيئا من كسبى .. ولم أقف منك يوما موقف المزدرى لذلك الفلاح الذى يدخل بيت سواه .. ولكن العطور والفطائر والثياب لم أرسلها الى منزل آخر ، بل كنت أقول : « ان امرأتى هناك » لاننى لم أكن اريد أن أحزنك .. وحينما أصابك المرض ، استقدمت احد ضباط الصحة فأجرى اللازم ،

وصدع بكل ما سألته انت أن يفعل . وحينما تبعت فرعون فى رحلته الى الجنوب ، هكذا كان مسلكى معك : قضيت ثمانية اشهر لا آكل ولا أشرب ، كما يجدر بأمثالى . وعندما عدت الى (منفيس) طلبت من فرعون عطلة ، وقصدت المكان الذى تقيمين فيه (يعنى قبرها) وبكيت كثيرا أنا ورجالى أمامك . وهاندا قد أنفقت حتى اليوم ثلاث سنين . ولكنى لن أدخل بيتا آخر ، وليس هذا فرضا على رجل مثلى .. »

ومن رثاء هذا الزوج الوفى نعلم أن الرجل كان اذا ارتقى الى المناصب العليا ربما طلق زوجته التى عاش معها وهو صغير الشأن ، واستباح مالا يرضاه ضمير نزيه ، وأن الرجل كان اذا ماتت زوجته تزوج أخرى دون أن يضطر الى الانتظار ثلاث سنوات ..

وتنبئنا القصص بأن الزوجة الخائنة كانت تعاقب بالقتل . فقد عاد الاخ الاكبر الى بيته ، بعد ان اتضح له كيد امرأته — فى القصة التى قدمناها للدلالة على قسوة الادب على المرأة — وهو يحمل الحداد على أخيه البرىء ، ويثأر له بقتلها والقاء جثتها للكلاب . وفى قصة أخرى تحرق زوجة « أوبا انير » ويلقى رمادها فى النيل ، لانها خانته ، وكذلك يجازى عشيقها . تلك كانت الشريعة . والكاتب «أنى» ينصح تلاميذه قائلا : « احذر من المرأة التى تخرج خلسة ، لا تتبعها ولا تتبع مثيلتها . رب امرأة يغيب زوجها فترسل اليك الرسائل تدعوك اليها كل يوم منذ يختفى الشهود ، فاذا اعتقلتك فى شركها ، فانها لجريمة عقابها الموت منذ تنكشف ،

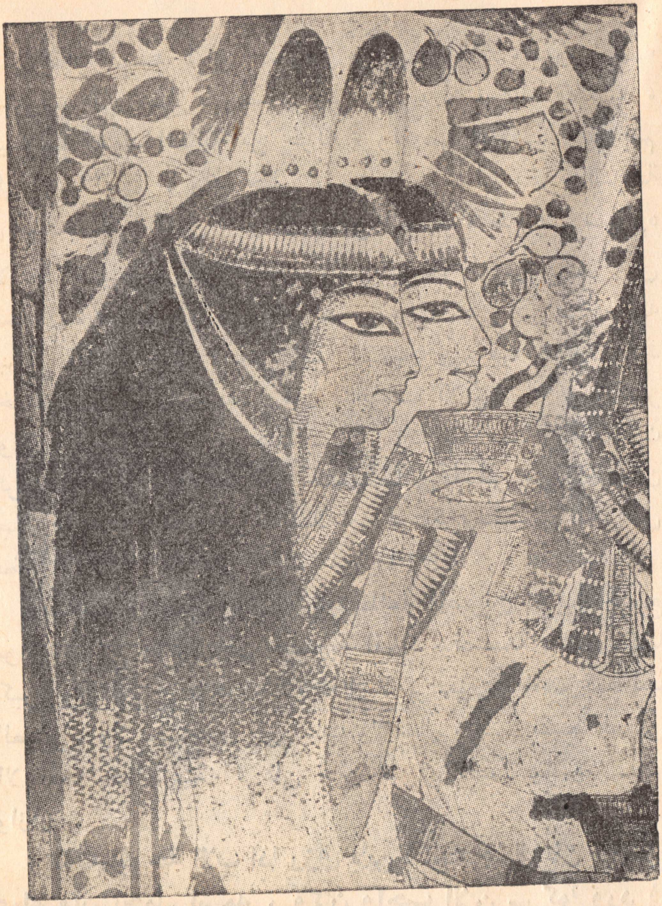
ولو لم تكن قد أجرمت للنهاية » .

ولم يكن ثمة ما يعاقب جريمة الزوج الزانى – هذا فى حدود ما بلغناه من معلومات . ولقد كان للرجل أن يدخل الى بيته السرائر . وتذكر بعض الوثائق ما يدل على تعدد الزوجات ، ولكنها حالات نادرة . ففى محاضر محاكمة العصابة التى تخصصت فى نهب المقابر ، يقول أحد اللصوص انه تزوج أربع نساء ، كانت اثنتان منهما فقط على قيد الحياة عند سماع أقواله . وفيما عدا الشواذ من أمثال الخارجين على القانون ، كان المصريون موحدين فى الزواج .

وربما كان للرجل حق تأديب المرأة ، كأن يؤدب الزوج زوجته أو الاخ أخته ضربا بالعصا دون ان يبرح بها . غير أن السب كان مما يقع تحت طائلة العقاب . فهناك رجل تعهد أمام القضاة ان يكف عن سب زوجته ، والا كان جزاؤه مائة ضربة بالعصا والحرمان مما اقتناه وهى فى عصمته . وكان ابو الزوجة هو الذى قدم تلك الشكوى الى المحكمة .

مكانة الاطفال فى العائلة المصرية القديمة

ينصح الكاتب « أنى » قراءه بأن يتزوجوا فى سن مبكرة وأن ينجبوا كثيرا من الاطفال . وما كان المصريون فى حاجة الى هذه النصيحة ، فهم يحبون الاطفال حبا جما . زوروا مقابر منفيس أو تل العمارنة أو طيبة ، وانظروا الى لوحات أبيدوس أو الى المجموعات المنحوتة ، تجدوا الاطفال فى كل مكان ..



حسناوان تمثلان الجمال فى عهد الفراعنة

لا يكاد السيد « تى » ، وهو من كبار الملاك ، يزور أرضه ليشرف على أعمال الحصاد حتى يهيىء له رجاله مجلسا ، فيجتمع أفراد العائلة من حوله ، ويقبض الاطفال بأيديهم على عصا أبيهم . واذا خطر للسيد « تى » أن يخرج للنزهة فى مركب على النيل ، أو ان يمضى للصيد ، فلن يتم سروره الا اذا اصطحب أهل بيته . وكان أبناء الراعى يتبعونه فى الحقول ، حيث يشب الغلام الصغير واقفا على أطراف قدميه ليرفع الجرة حتى شفتى ابيه الشيخ ويسقيه . ولا يكاد أخناتون و نفرتيتى يفارقان بناتهما الاميرات ، فى القصر او فى خارج القصر ، بل هما يشركان أكبرهن سنا فى الحفلات الرسمية ، ويسعدهما ان يحتضنا فى فيض من الحنان أصغرهن سنا ويغمراهن بالقبلات . ولم يكن رمسيس الثانى أقل فخرا بأولاده العديدين (أكثر من ١٦٠) !

ويعجب « اصطرابون » باستطاعة المصريين تربية جميع مواليدهم . والحق ان خصوبة البلاد واعتدال الجو كانا أكبر عون لهم فى ذلك . فالاطفال لا يرهقون آباءهم بمطالب العيش ، ولا يحتاجون الى ثياب ولا نعال ، اذ لا يضع الصبى الا عقدا حول عنقه ، على حين تتزين الصبية بمشط وازار .

وتشتد فرحة الاب اذا رزق بابن ذكر ، خليق بأن يواصل عمله وأن يحمل اسمه . وكان واجب الابن – كما ورد فى النقوش مرارا – هو أن يدفن أباه وان يعنى بقبره .

ولما كان المصريون ولوعين بمعرفة الغيب ، فقد كانوا

يسألون الآلهة ، عندما يولد لهم طفل ، عن مستقبل ولدهم واى ميتة كتب عليه أن يموتها . وكانوا فى اغلب الاحيان يتبركون باطلاق اسم الاله ضمن أسماء الوليد ، مثل « جد بتاح يوف عنخ » ومعناها « يقول بتاح انه سيعيش » ، أو « بتاح حوتب » ، او « خنوم حوتب » ، او «سنوزيريس» الخ . وكان المصريون يسجلون مواليدهم لدى كتب الدولة، كما كانوا يسجلون الوفيات وعقود الزواج .

ويظل الطفل فى رعاية أمه التى كانت تحمله على صدرها وتتفانى فى العناية به . وهذا الحكيم « انى » يقول : « رد لامك كل افضالها عليك . اعطها الخبز وفيرا ، واحملها كما حملتك . فقد كنت عبئا عليها ثقيلا . عندما ولدت بعد تمام شهورها ، واصلت هى حملك على نحرها وظل ثديها على فمك ثلاث سنين ، وما كانت تنفر من قاذوراتك » .

وبحين اليوم الذى يخرج فيه الصبى من سن الطفولة ، فلا يقنع من دون الملابس بعقد فقط ، ويخلع عليه أبوه ازارا وحزاما . أما البنت فترتدى ثوبا فى هذه المناسبة . وقد كان هذا الحدث تاريخا يؤرخ فى حياة الشخص . ويذكر الشيوخ من رجال البلاط — مثل « أونى » و « بتاح خبسيس » — أنهم عقدوا الحزام فى عهد فلان أو فلان من الملوك . ولعل ذلك اليوم كان يوافق التحاق الصبى بالمدرسة . غير أن الصبية من أبناء الفلاحين والصناع كانوا يقيمون فى بيوتهم ، ليتدربوا مع آبائهم على حراسة الماشية أو استخدام أدوات المهنة التى سوف يرثها كل منهم .

الخدم .. والعبيد

كان المصريون يطلقون عدة ألفاظ مختلفة على من نعبر عنهم اليوم بلفظ « الخدم » . فهناك « المستمعون » أى الذين يسمعون النداء ويتلقون الأوامر ، و « السقاة » الذين يتميز اسمهم برسم القدح . وثمة اسم آخر مركب من صورة عصا طويلة ذات طرف ملتو ومن بساط مطوى مربوط ومن مكنسة صغيرة ، وهو يعنى الخادم الذى يتبع سيده فى خروجه ويهيىء له مجلسه . وكان للسقاة منزلة خاصة ، يثق بهم رب البيت ويستطيعون هم أن يؤثروا عليه .

هؤلاء جميعا كانوا أحرارا ، فى استطاعتهم أن يتركوا خدمة سيدهم متى شاءوا ، وأن يتخذوا مهنة أخرى ، وأن يقتنوا المال وأن يشتروا العقار وأن يسعدوا يوما ـ اذا أتيحت لهم الوسائل ـ بأن يكونوا من ذوى الخدم والحشم بدورهم .

وأما العبيد فهم طائفة أخرى نعرفها بوضوح فى عصر الدولة الحديثة . كانوا يسخرون ، وقد يضربهم المشرفون على العمل فيلوذون بالفرار ، فيتعقبهم رجال السيد ، وقد يعجزون عن اللحاق بهم فى آخر الأمر . هذا ما بلغنا عن عبدين هربا من قصر رمسيس . وويل للعبيد الذين يحاولون الفرار ثم يلقى القبض عليهم ، فقد كانوا يكبلون ويعاقبون عقابا شديدا .

وكان هؤلاء العبيد فى أكثر الاحيان من الأجانب الذين أسرتهم القوات المصرية أثناء حملاتها فى بلاد النوبة وليبيا والصحراء الشرقية وسوريا . وكان فرعون يهبهم لرجل

جيشه الذين قاموا بالعمليات الحربية التى أسفرت عن أولئك الأسرى . **وهكذا اقتنى البطل « أحمس » تسعةعشر عبدا : عشر نساء وتسعة رجال ، كان بعضهم يحمل أسماء أجنبية ، وبعضهم يحمل أسماء مصرية لعله هو الذى أطلقها عليهم ، ما لم يكونوا ضمن من أسرهم فى حملة الدلتا .**

وكان للسيد أن يؤجر عبده أو يبيعه . ويبدو أن أثمان العبيد كانت مرتفعة . فقد سأل القاضى زوجة أحدالمتهمين بنهب المقابر : « من أين له أن يشترى عبيدا ؟ » . وكان عقاب العبيد الذين أدينوا فى هذه القضية قاسيا ، بيد أن اللصوص من الاحرار لم يعاملوا معاملة افضل .

وقد كان للسيد أن يؤدب عبده بالعصا ، على أنه كان يؤدب كذلك عماله ، أو رعاة ماشيته . وينبغى ألا ننسى ما كان يعوق طبقة الشعب الدنيا عن الوثوب الى معيشة أفضل ، ونحن نتحدث هنا عن معاملة السادة للعبيد ، اذ لم يكن الفرق كبيرا بين أفراد هذه الطبقة من الاحرار وبين من ندعوهم عبيدا . ولدينا وثيقة تاريخية تثبت أن عبد أحد الحلاقين قد أعتق وزاول مهنة سيده وخلفه فيها ، بل وتزوج ابنة أخيه . وهكذا كان العبد البارع يتحرر ، ويتخلص من أوضاع الذل والهوان ، وينخرط فى صفوف الشعب .

مع المصريين فى بيوتهم !

كان الأثرياء وكبار رجال الدولة يحاولون محاكاة الترف الذى عهدوه فى قصور الملوك . فكانوا يضربون حول الدار

وملحقاتها سورا مانعا ، هو جدار مرتفع كثيف ، ينفتح فيه باب حجرى يؤدى الى مسكن رب البيت ، وأبواب صغيرة أخرى ـ مجرد فتحات ـ تؤدى الى الحديقة ومسكن الخدم . وكان لبعض الدور واجهات رائعة تتقدمها الاعمدة كواجهات المعابد .

وتظهرنا حفائر (تل العمارنة) على تخطيط البيت المصرى من الداخل . فوراء الباب دهليز يسبق غرف الاستقبال التى تستند سقوفها على الأعمدة . ولهذه الغرف امتداد أضيق وجد فيه المنقبون صناديق من الآجر يرجح أن بعضها كان مخصصا لحفظ الملابس وبعضها لحفظ المأكولات والمرطبات بمثابة صوانات . ويشغل باقى البناء جناح العائلة .

ومما يثير اعجابنا أن جناح العائلة لم يكن يتألف من غرف السكنى فحسب ، بل كان يشتمل على الحمام والمرحاض أيضا . وكانت جدران الحمام تكسوها طبقة من حجر . وفى أحد الأركان وجدت بلاطة حجرية تحوطها ستارة من البناء ، كان يقبع وراءها خادم يتولى صب الماء على المستحم . وكان المستحم بعد ذلك يجلس على كرسى فى ناحية أخرى للتدليك . وأما المرحاض فكان يقع خلف الحمام ، وكانت جدرانه بيضاء مطلية بالجير ، وهو مزود بمقعد من الحجر الجيرى مثقوب وموضوع على صناديق صغيرة من الآجر يكاد يملأها الرمل .

وكان يحيط بالمنزل عدد من الأفنية . ففى فناء منها صوامع الغلال على شكل خلية النحل . والى الشمال

الحظيرة وبناء لايواء الكلاب . والى الشرق يصطف المطبخ والمخبز ومساكن الخدم وهى صغيرة مبنية بالآجر . ويستمد البيت ماءه من بئر فى أحد الأفنية .

وتنقسم حديقة البيت الى أحواض مربعة أو مستطيلة ، تفصل بين بعضها وبعض ممرات مستقيمة ، تحف بها الاشجار الطويلة والازهار القصيرة ، وتظللها الكروم المديدة . وبين النخيل وشجر الجميز والتين والطلح وغيرها ، يقوم « كشك » رشيق ، يتناول فيه أهل البيت طعامهم فى الصيف ، وفى جوانبه جرار كبيرة لترطيب المشروبات فى ظلال الاشجار المورقة ، وبه موائد ورفوف سوى عليها الخدم ما لذ وطاب من الأطعمة .

وكان فى حدائق العظماء حوض كبير من الماء مربع أو مستطيل ، تكسو وجهه أزهار اللوتس ، ويسبح فيه البط ، ويهبط اليه درج صغير ، حيث يرسو زورق خاص فى انتظار أهل البيت الذين يريدون النزهة .

وأما بيوت الطبقة الوسطى فكانت تتألف من عدة طوابق، على سطحها الأعلى صوامع الغلال . وكانت بسيطة المظهر ، لا يحلى واجهتها الا الباب الخارجى الكبير ، على حين تنفتح فى كل طابق منها نافذتان أو أربع أو ثمان ، وكلها صغيرة ، مربعة ، تكسوها ستارة لتقى السكان من حرارة الشمس والغبار .

وكانت غرف الطابق الأرضى تخصص فى أكثر الاحيان للصناع . ففى بيت المصرى « تحوتى ــ نيفر » بمدينة طيبة ،

نرى نسوة يغزلن ورجالا يديرون النول . وفى غرف مجاورة نرى القائمين بطحن الغلال وباعداد الخبز . ويقطن أصحاب البيت فى الطابق الثانى ، حيث غرفة فسيحة تضيئها نوافذ صغيرة فى أعلى الجدران ، ويرتكز سقفها على أعمدة رؤوسها مزخرفة بخطوط زهرة اللوتس . وقد اعتاد المصريون أن يكسوا جميع جدران غرفهم بالرسوم والنقوش التى تصور دنياهم وحياتهم الآخرة .

وكان الطابق الثالث أقل ارتفاعا ، يجلس فيه السيد على كرسيه ، ويقعد حوله الكتاب على الارض ، يقرأون ما ورد اليه من رسائل ويرقمون ما يملى عليهم من أوامر . وعلى السلم يصعد الخدم ويهبطون حاملين على رؤوسهم الأمتعة، أو على أكتافهم عصا من خشب تتدلى من طرفيها جرتان لنقل الماء .

ولم تكن المنازل متلاصقة ، حتى فى عاصمة كطيبة حيث يغلو ثمن الأرض نسبيا ، بل كان المصريون من أهل الطبقة الوسطى يغرسون بضع أشجار أمام بيوتهم أو وراءها أو فى فناء داخلى . وهذا بيت « نختى » تظلل مدخله نخلة وجميزة .

لقد كان المصريون من أعلى الطبقات الى أدناها يبذلون قصارى جهدهم لتكون لهم بيوت مريحة وجميلة . فكانوا يذودون عنها الحشرات — وما أكثرها فى جو مصر الدافىء — والجرذان والضباب والثعابين والطيور الجارحة . وتصف بردية « ايبرس » الطبية بعض الادوية الناجعة لاستئصال

الحشرات ، ولا سيما غسل المنزل بمحلول النطرون . واذا أردت ألا يخرج ثعبان من شقه، ضع أمامه شيئا من النطرون، أو سمكة مجففة ، أو عددا من بذور البصل ! وللقضاء على الحشرات القارضة فى مخازن الفلال ينبغى أن تطلى جدرانها وأرضها بمحلول معين أو أن تحرق فيها بعر الفزال ، ولكى تدرأ الفيران عن الأكياس عليك بتشحيمها بدهن القط !

الأثاث والأوانى

وكانت أهم قطع الأثاث التى تشتمل عليها غرف الاستقبال، فى القصور ولدى الموسرين ، هى المقاعد . وقد تفنن المصريون فى صناعة المقاعد من أحجام وأشكال مختلفة . فكان أبسط أنواعها يشبه صندوقا مكعبا مزودا بمسند خلفى قصير . وتطورت المقاعد ، فأصبحت ذات قوائم على هيئة أرجل السباع ، وذلك لأن المصريين فى عصر الدولة القديمة تخيلوا ملوكهم فى صورة الأسد ، فاستمدوا من هذا الرمز جمال الزخرف ، اذ كانوا يعتقدون أنه من مظاهر القوة ، ومما يدفع الشر والأذى عن الجالس على الكرسى . وفى عصر الدولة الحديثة أمعن الفنانون فى تزيين المقاعد وزخرفتها وتطعيمها بالمعادن الكريمة والعجائن الملونة . وكانت أرض غرفة الاستقبال مفروشة بالحصر ، تتناثر عليها الوسائد . وكان اذا استوى المصرى على مقعده وضع وسادة وراء ظهره وأخرى تحت قدميه .

وفى غرفة المائدة ـ اذا كانت مستقلة عن غرفة الاستقبال ـ

توجد المقاعد وموائد صفيرة وحوامل ورفوف . وتلك قطع منوعة من الاثاث ولكنها صفيرة الحجم . فلم يخطر للمصريين أن يضعوا موائد كبيرة يجمتع حولها عدة آكلين ، وانما كانوا يأكلون فرادى أو اثنين معا . وكانوا فى العصور الاولى يستخدمون صنفين من الآنية : آنية خزفية شائعة بين عامة الناس ، وآنية حجرية للمترفين . ثم تعددت أشكالها وأحجامها ورقت موادها فاتخذت الاكواب من البلور الصخرى . وفى عصر الدولة الحديثة كثر صنع الآنية من الذهب والفضة . وعرف المصريون استخدام ما يشبه « براد » الشاى الحالى ، المزود بالمصفاة، لاعداد مشروباتهم الساخنة . وقد ظل أبناء الشعب يأكلون ويشربون فى الاوانى الخزفية ، ولكنها أصبحت مبتكرة مزينة بالرسوم والنقوش.

وكان فى غرف النوم أسرة توخى صناعها أولا حاجة البدن الى الراحة ، وبعد ذلك حاجة الذوق الى المتعة . وأقدم المعروف منها سرير بسيط هو مسطح مستطيل يحوطه اطار من خشب يرتكز على أربع قوائم . وكانت القوائم تحاكى فى أشكالها أرجل الثور أو الاسد كما رأينا فى المقاعد . وفى زمن الدولة الحديثة بلغت الاسرة درجة رائعة من الاناقة ورقة الصنع وحسن الاخراج . وقد حفظت لنا مقبرة توت عنخ أمون ثلاثة أسرة باذخة ، وكأن كلا منها يمتد على ظهر حيوان كامل : البقرة والفهد وسبع البحر . والى جانب الاسرة كانت غرف النوم تحتوى على صوانات من خشب مطعم مزخرف تضم الثياب والاغطية. وأما أدوات الزينة ــ كالمرايا

والأمشاط ــ فكانت توضع فى صناديق لطيفة متباينة الاشكال ، بينما توضع مساحيق التجميل والعطور فى علب عاجية . وفى الغرف المخصصة لافراد العائلة ، ولا سيما غرف الاطفال أو الفتيات ، قد توجد اللعب وآلات الموسيقى .

وفى ما يعادل غرفة المكتب الحالية ، كان لدى المصريين القدماء خزانات مخصصة لحفظ المخطوطات ، ولفائف أوراق البردى ، وأدوات الكتابة . فقد كان الكاتب اذا أكمل برديته طواها وحزمها وختمها ، واذا اجتمعت عنده عدة حزم من هذا الورق وضعها فى حقيبة من الجلد ووضع الحقيبة فى الخزانة . ولم يكن الكاتب المصرى فى حاجة الى منضدة ، بل كان يكتفى بأن يبسط البردية على ركبتيه ، واذا اقتضاه الامر كتب واقفا والورقة فى يده اليسرى لا يطويها . وكانت للكاتب حقيبة أخرى ، جامدة الاضلاع ، مسطحة القاع ، يجمع فيها أدواته ويستخدمها فى تنقلاته .

وأما فى بيوت الفقراء ، حيث تتكدس عائلة بأجمعها فى مساحة قد لاتتجاوز عشرين مترا مربعا ، فقد كان الاثاث قاصرا على الحصر وبعض الجرار والاوانى الخزفية . وحيثما وجدنا بعض الرفوف والصناديق الخشبية ، فنحن واثقون من أن العائلة قد بلغت حظا من رغد العيش .

اهتمامهم بالطعام والشراب

وكان المصريون القدماء ــ وهم قوم يعرفون قيمة أرضهم ولا يبخلون بجهودهم ــ يخشون المجاعة ، ويحسبون للأزمات حسابها . فقد كانوا يعلمون أن فيضان النيل اذا كان عنيفا

أو ضعيفا أصيبت مزروعاتهم وقل ما يحصدون . فكان على الحكومة أن تدخر الغلال لتمويل الشعب فى تلك الفترات العصيبة . وبذلك نصح يوسف فرعون عندما فسر له حلم البقرات السمان والبقرات العجاف . وكان الموسرون يخزنون القمح فى الصوامع فوق سطوح منازلهم ، وهى عادة مازالت متبعة حتى اليوم .

ويشغل ذكر ألوان الطعام والشراب مكانا بارزا فى النصوص الهيروغليفية . ففى بردية « هاريس » التى تحمل تفاصيل هبات رمسيس الثالث للمعابد ، يدور الحديث حول المواد الغذائية بقدر ما يدور حول المعادن النفيسة والملابس والعطور . وفى قصة « سنوحى » يسعد البطل بما يجده فى أرض سوريا من التين والعنب والزيت والعسل والنبيذ ، وبما يصنعه من فطائر ، وما يشويه من لحوم الطيور التى يصيدها . ويعدد لنا كذلك بطل قصة « الملاح الغريق » ما وجده فى جزيرته بالبحر الاحمر من لذيذ الخضر والفواكه والطيور والأسماك .

وقد كان المصريون يحبون أكل اللحم بوجه خاص ، ولا سيما لحم البقر . تشهد بذلك مناظر القطعان ومناظر الذبح التى تعرضها علينا جدران المقابر ، وأشهرها فى أبيدوس ومدينة هابو . وكان لأصحاب الحظائر طريقة بارعة فى علف الابقار حتى تكتنز لحما وشحما .

وكان أهل الدولة القديمة يأكلون الكثير من لحم ماشية الصحراء كالغزال والوعل . وكانوا يربون فى حدائقهم

ما يصيدونه منها حيا . ولكن هذا المصدر من مصادر الغذاء قد فقد أهميته في عهد الرمامسة ، فنحن اذا رأينا وعلا أو غزالا فى موكب الذبائح المخصصة للآلهة ، لا نجد ذلك فى تمثيل ما يذبح للولائم الدنيوية .

ولم يعرف قدماء المصريين الدجاج والديكة ، ولكنهم كانوا يكثرون من أكل الدواجن الاخرى كالحمام والاوز والبط ، وكانوا يجيدون تربيتها .

ويبدو أن أكل السمك كان مما يحرمه بعض الكهنة . على أن ذلك التحريم لم يمنع الشعب من استهلاك كميات وافرة منه . وقد كان أهل الدلتا وأهل الفيوم ممن يحترفون صيد الاسماك .

وأما الخضر فنرى حزما منها فوق الموائد المرسومة على الجدران الاثرية ، وأقدمها البصل والكراث . ويزعم « هيرودوت » أن العمال الذين اشتركوا فى بناء الهرم الاكبر قد أكلوا ـ بما يبلغ ثمنه ١٦٠٠ ريال من الفضة ـ فجلا وبصلا وثوما ! وقد يكون هذا القول صحيحا ، الا أنه غير محفور على الهرم كما يظن المؤرخ اليونانى . ومهما يكن من شىء ، فقد وجدت حزم من الثوم فى مقابر طيبة ، وسجلت التوراة حسرة بنى اسرائيل على بصل مصر وكراثها عند خروجهم منها .

ومن الغريب أن يقال ان الفول ـ وهو الغذاء الشعبى فى أيامنا ـ كان مما حرمه الدين على أفواه قدماء المصريين ! فهذا « ديودور » يخبرنا بأن دين المصريين قد قضي عليهم

بالامتناع عن أكل الفول والبازلاء والحمص ، ليعلمهم الزهد والتضحية بشيء ما . ومن الحق أن حبة الحمص تشبه رأس الصقر المقدس ، ولكن ذلك لا يبرر تحريم أكلها وأكل ما قاربها من البقول !

واعتاد المصريون زراعة الخس فى حدائق بيوتهم . والخس هو نبات الاله « مين » ـ اله الحياة الجنسية ـ الذى يقوم تمثاله فى أغلب الاحيان أمام حوض من أحواض هذه البقلة . **وقد لوحظ ان الخس ينبه شهوة الرجال ويعالج عقم النساء ، فكان اقبال القدماء عليه شديدا ، وكانوا يأكلونه كما نأكله اليوم نيئا مزودا بالزيت والملح . وكثيرا ما نرى هذا الخس بلونه الاخضر على موائد القرابين .**

على أن القدماء لم يعرفوا مثلنا البرتقال والليمون والموز . ولم يظهر على أرضهم الخوخ واللوز والكمثرى الا فى عهد الرومان . ولكنهم كانوا يستمتعون فى الصيف ـ منذ أقدم العصور ـ بلذيذ التين والعنب والبلح والجميز . ولم يكن البلح لذيذا حقا الا فى منطقة « طيبة » . ولم يكن جوز الهند الا تحفة نادرة فى حدائق بعض المترفين . أما الرمان والزيتون والتفاح فقد أدخلت زراعتها فى زمن الهكسوس . واستخدم المصريون زيت الزيتون فى الاضاءة ، الى جانب استخدامه فى الطبخ . ولا ينبغى أن ننسى أن عددا كبيرا من الكلمات الهيروغليفية الدالة على النبات ما زال مجهول المعنى ، مما يحول دون احصاء موارد المصريين اذ ذاك من الخضر والفاكهة . وكانت الطبقة الفقيرة تمتص عصارة

أعواد البردى كما تمتص الآن عصارة أعواد قصب السكر .

ولتحلية شرابهم أو طعامهم ، استعمل المصريون العسل وثمار الخروب ، وكتبوا كلمة «نوجم» – ومعناها «حلو» – برسم ثمرة الخروب . وتخصصت جماعة منهم فى اجتلاب الشهد البرى وشمع النحل من الصحراء ، وهذا لم يمنع سواهم من تربية النحل فى الحدائق واختزان العسل فى قدور كبيرة من الحجر .

وكان المصريون يعتبرون الألبان ومنتجاتها من أشهى أغذيتهم . وكانوا يتلقون الحليب فى آنية من خزف بيضاوية الشكل ، يسدون فوهتها بالحشائش لحفظ اللبن من الحشرات . وللزبد والجبن والقشدة كلمات معروفة ولو ان ترجمتها ما زالت فى حاجة الى التحقيق .

وكان الشراب الوطنى هو الجعة (البيرة) يستمدونها من تخمير الشعير أو القمح أو البلح ، وأما نبيذهم الحلو فكانت تدره عليهم كروم الدلتا .

قصة الخبز

ونعرف أيضا ، منذ عهد الدولة القديمة ، أكثر من خمس عشرة كلمة تدل على ألوان الخبز والفطائر التى تختلف أسماؤها باختلاف الدقيق والشكل ودرجة النضج ، ونسبة ما يدخل فى تركيبها من العسل واللبن والبيض والزبد أو الدهن . وكان المصريون يستمدون الدقيق من الشعير والقمح .

وجرت العادة على صناعة الخبز فى البيوت وفى المعابد .



رسم كلب . . من النقوش القديمة . وقد كان الكلب من الحيوانات الاليفة التى تعتز بها كل اسرة

على أن عددا من الخبازين المحترفين كانوا يصنعون الخبز ويبيعونه لعامة الناس . وأولى عمليات اعداد الخبز هى تنقية القمح أو الشعير ، ثم تتولى أمره بعد ذلك فرقة من الرجال والنساء . فيبدأ الرجال بسحقه فى مدق حجرى ، ثم تغربله النساء لفصل النخالة المعدة لعلف الحيوان والقاء ماعداها فى الرحى . وتعيد النساء نخل الدقيق حتى يبلغ من النعومة ما يردن ، وهن يغنين : « لتمنح جميع آلهة البلاد الصحة والقوة لسيدى ! »

وكانت تلك الفرقة لا تعد من الدقيق الا ما يلزم لخبز اليوم . فهاهم الخبازون يعملون الى جانب الطحانين والناخلات . وهذه امرأة تضع على النار قوالب مفرغة مخروطية الشكل ، بحيث يرتفع اللهب فى داخل كل منها ،

حتى اذا حميت ، رصتها على لوح من خشب ذى ثقوب مستديرة ، وملأها العجانون بالعجين المختمر ، وأحكموا غطاءها حتى تنضج . وأخيرا يخرج الرجال الأرغفة من قوالبها ويعدونها أثناء وضعها فى السلال ، فالمصريون قوم يحبون احصاء كل شيء ..

وكانت صناعة الخبز بهذه الطريقة متبعة منذ عهد الدولة القديمة ، وهى طريقة بطيئة فضلا عن أنها تقتضى تجنيد عدد كبير من الايدى العاملة . وقد ظهر فى عهد الدولة الحديثة التنور الذى ينضج عدة أرغفة فى آن واحد . وهناك طريقة أخرى عرفها المصريون ، هى انضاج الفطير الرقيق بدفنه فى الرمل الساخن ، كما يفعل البدو حتى اليوم .

أكلوا بالشوكة والسكين !

ولم تكن العائلة المصرية تجتمع فى الصباح لتناول الافطار حول مائدة واحدة ، بل كان الاب يتناول افطاره وحده منذ أن يفرغ من اغتساله . وكان افطاره يتألف من الخبز والجعة وشريحة من لحم الفخذ وفطيرة تسمى « شنس » . وكانت الأم كذلك تتناول افطارها أثناء تصفيف شعرها أو بعده مباشرة . ففى أحد رسوم « طيبة » نرى خادما تقدم لسيدتها كوبا قبل أن تلقى السيدة المرآة من يدها .

وكان طعام الوجبتين الرئيسيتين يتألف من اللحوم والدواجن والخضر والفاكهة والخبز والفطائر ، الى جانب شرب الجعة . على أننا لا نرجح ان المصريين كانوا يأكلون اللحم كل يوم ، اذ لم يكن لديهم القصابون الذين يبيعون

اللحم بالتجزئة . فلم يكن يتصدى لذبح البقرة الا من كان يستطيع استهلاكها فى يومين أو ثلاثة قبل أن يدب الى لحمها الفساد، مثل كبار الملاك الذين يقوتون عددا كبيرا من العاملين فى خدمتهم ، أو أهل المعابد ، أو الذين يولمون وليمة خاصة، أما عامة الشعب فلم يكن ذلك فى وسعهم الا أيام الاعياد أو فى مواسم الحج .

ولم نر منظرا للمصريين أثناء غدائهم الا على لوحة فى احدى مقابر « تل العمارنة » ، وهى تمثل أخناتون وعائلته . فالملك يقضم قطعة من اللحم ، والملكة تتناول قطعة من الدواجن ، والملكة الوالدة ترفع شيئا الى فمها وتمد بيدها الاخرى شيئا الى احدى الاميرات الصغيرات الجالسة على وسادة بالقرب منها – فقد كان الكبار فقط هم الذين يتبوأون الكراسى – وبجوارهم مائدة ثانية محملة بألوان الطعام ، ولكننا لا نجد عليها أى نوع من أنواع الآنية ، لا الصحاف ولا الاكواب . وتكبر دهشتنا عندما نستعرض فى متاحفنا مجموعات الأوانى الجميلة وأدوات المائدة الدقيقة المخصصة لكل لون ! .. وأكبر الظن أن توزيع الملاعق والشوك والسكاكين على الآكلين كان يتم فى مرحلة من مراحل الوجبة غير التى صورها لنا الفنان فى تلك اللوحة . ويضم متحف « اللوفر » بباريس مجموعة شهيرة من الملاعق الخشبية ذات المقابض التى أبدع المصريون فى زخرفتها .

وفى عدد تال أقدم لك الجزء الثانى من هذا الكتاب ، ويضم فصولا أخرى ممتعة .



الرجل الذى حالف "الجستابو"!

من أروع مغامرات الجاسوسية
للجاسوس الانجليزى :
ادوين مويلر

تلخيص : ابراهيم محمد موسى

عزيزى القارىء :

مغامرات الجاسوسية لاتكاد تنقطع ، بل انها أصبحت من العناصر الاساسية لسياسة الدول فى وقت السلم ، وليس في وقت الحرب فقط .. وبينما تتبادل أمريكا و روسيا الاتهامات، وتعلن كل منهما - بين حين وآخر - انها اعتقلت جاسوسا يعمل لحساب غريمتها ، صدر كتاب لجاسوس عريق ، هو «ادوين مويلر» ، خاض غمار حرب الجاسوسية، واكتسب فيها خبرة ومعرفة .

ومن القصص الحقيقية التي أوردها « مويلر » فى كتابه ، اخترت لك هذه المغامرة التى وقعت أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكان لها أثر كبير فى تحويل دفة هذه الحرب ، والتعجيل بنهايتها .. فالواقع أن الحلفاء لم يكسبوا الحرب الا بخطة دقيقة لحرمان المانيا من موارد الوقود التي كان لا بد منها لتسيير الدبابات والمصفحات والطائرات ..

وكان هذا يتطلب دك معامل تكرير البترول ، ومراكز صناعته .. ومن ثم انصبت جهود الحلفاء على محاولة اكتشاف مواقع هذه المراكز ..

وهنا تبدأ القصة التى اطلع « مويلر » على دقائقها بوصفه من المبرزين فى المخابرات البريطانية .

يضحى بسمعته ليبيع البترول للالمان

• **فى أوائل** الحرب العالمية الثانية ، أدرج الحلفاء اسم رجل من (ستوكهولم) - يدعى اريك اريكسون - فى « القائمة السوداء » ، بتهمة الاتجار مع العدو ومساعدة الالمان في مجهودهم الحربي ، اذ كانت مخابرات الحلفاء قد

ذكرت في تقاريرها انه يتعامل مع الالمان فى تجارة الزيت (البترول) ، وانه يقوم برحلات منتظمة بين وطنه (السويد) وبين ألمانيا ، وانه على علاقات وثيقة مع كبار موظفي « الجستابو » .. الجهاز السري للنازيين .

وكان اكتشاف هذه الحقائق صدمة مذهلة لأسرة « اريكسون » ، وكان أقرب أصدقائه اليه - وأقدمهم عهدا بوده - من أقوى أنصار الحلفاء ، فلم يلبثوا ان راحوا يتفادونه، واصبحوا اذا رأوه مقبلا فى طريق تجاوزوه الى طريق آخر حتى لا يلتقوا به .. وباتت زوجته في عزلة عن الناس .

ومع ان « اريكسون » كان من رعايا السويد ، الا انه ولد فى (بروكلين) - احدى ضواحى مدينة (نيويورك) - ونشأ وتعلم فيها ، ثم تخرج فى جامعة « كورنيل » .. لذلك فقد انهالت عليه رسائل اللوم من أهله ومعارفه فى الولايات المتحدة .. ومع ذلك كله ، فان شيئا لم يقو على أن يصده عن التيار الذى سار فيه .

سوق البترول الحافلة بالمغامرات

• **والواقع** ان « اريكسون » كان المثل الحق للبائع أو التاجر الامريكى .. كان من ذلك النوع من الرجال الذين يقيمون حياتهم العملية على « الاتصالات » ، فهو يبيع نفسه مع بضائعه فى وقت واحد . وقد دخل صناعة الزيت (البترول) لأنها بدت له مثيرة ، ولأنها كانت تمكنه من الانتقال من بلد الى آخر ، فأتاحت له أن يقضي سنوات فى

الشرق ، ثم انتقل ميدان عمله الى أوربا .. وكان فى أول الامر يعمل لحساب شركة « ستاندارد » ، ثم انضم الى شركة « تكساس » .

وكان المشتغلون بصناعة الزيت ـ بين ١٩٢٠ و ١٩٤٠ ـ جماعة ربطت بين أفرادها روابط دولية طغت على كل صبغة قومية لدى أى واحد منهم ، فكأنما كانوا قبيلة قائمة بذاتها بين الناس ، من مختلف الشعوب .. وكنت ترى الواحد منهم فى (شنغهاى) فى عام ، واذا به فى (لندن) أو (طهران) ، فى العام التالى .. وقد يكون منافسا خطيرا لك ، يزاحمك بدون هوادة ـ فى عام ـ فاذا به يعمل الى جانبك ويتعاون معك فى العام التالى .. وكان بينهم أمريكيون ، وانجليز ، وهولنديون ، وألمان .. كلهم يعيشون فى جو من المضاربات المحفوفة بالمغامرة ، والصفقات التى تتجاوز الحدود السياسية للدول .

ولقد نجح « اريكسون » أيما نجاح فى هذا الميدان ، وقدر له ان يصبح مديرا لفرع شركة « تكساس » فى السويد .. حتى اذا وفق الى اكتساب الجنسية السويدية ، شرع فى انشاء شركة خاصة به ، لبيع وشراء منتجات البترول الامريكى ..

ابن أخى الملك وسيط ناجح !

• **وبعد** نشوب الحرب العالمية الثانية بوقت قصير ، وجد « اريكسون » فرصة مهيأة للاتجار مع النازيين . وكان فى

ألمانيا فى ذلك الحين زيت تستطيع تصديره ، فلم يكن يخطر ببال أحد تصديق ما كان يقال من أن الحلفاء يستطيعون أن يؤثروا فى موارد هذا الزيت تأثيرا يذكر ، عن طريق الغارات الجوية .. اذ كان السلاح الجوى النازى من القوة – فى ذلك الحين – بحيث يستطيع أن يدرأ كل عدوان .

وبدأ « اريكسون » يدور حول رجال الاعمال الالمان ، فانضم الى الغرفة التجارية الالمانية فى (ستوكهولم) ، وابتعد عن معظم أصدقائه القدامى . ولكنه ظل على صلة وثيقة بالأمير « كارل برنادوت » ابن أخى ملك السويد . وكان الامير يحوم بدوره حول النازيين ، برغم ان هذا العمل كان يثير اشمئزاز الاغلبية الساحقة من أهل السويد.

ولقد عرف « اريكسون » ان القرارات الاخيرة – فى صفقات الزيت – لابد أن تصدر عن « هنريخ هيملر » ، رئيس « الجستابو » . ولهذا انصرف بجهوده كلها الى التقرب الى « الهر فنكه » ممثل هيملر الرئيسى فى السويد .. وكان « فنكه » هذا نازيا متعصبا لنازيته . على انه كان ينطوى على نقطة ضعف مهدت الطريق لاريكسون .. تلك هى حبه للمال ، فكان يفرض لنفسه نصيبا على كل صفقة ، كرشوة .. أو – بتعبير مهذب – عمولة ! .. ومن هذه الناحية ، استطاع الامير كارل أن يساعد « اريكسون » على الاتصال بالهر فنكه ، فما لبث رجل الاعمال السويدى أن وثق صلاته به ، وأخذ يقيم له الحفلات والمآدب فى بيت له بالريف !

ارتياب السلطات السويدية يكسبه ود النازيين

• **على ان** آمال « اريكسون » لم تتحقق كاملة بهذه الصلة ، اذ أن الملحق التجارى بالمفوضية الالمانية فى السويد - وكان يدعى الهر لودفيج - لم يكن يميل اليه أو يرتاح الى التعامل معه .. بيد ان هذا لم يفت فى عزيمة تاجر البترول السويدى ، بل راح يعمل حتى حصل على اذن بزيارة ألمانيا .. وتأهب للرحلة - فى ربيع سنة ١٩٤١ - مزودا بخطابات توصية الى الزعماء الالمان ، من « فنكه » وغيره من ذوى الكلمة ..

وقبل أن تتحرك الطائرة - التى كان بين ركابها - من مطار (بروما) ، القريب من (ستوكهولم) ، صدرت الاوامر بتأخيرها ، وأقبل رجال الشرطة يفتشون « اريكسون » وأمتعته تفتيشا دقيقا .. ولما لم يعثروا على شىء ، أخلوا سراحه ، وتركوه يرحل .

وكان هذا الحادث - وما أبدته السلطات السويدية من شك فى الرجل - سببا فى ازدياد اطمئنان النازيين اليه . فعندما وصلت الطائرة الى برلين - فى اليوم التالى - وجد فى انتظاره سيارة رسمية أقلته الى مقر قيادة « الجستابو » .. وهناك التقى برجلين كانا معه فى الطائرة ، وكانا من أعوان الجستابو . وقد أكدا له أن حادث تفتيشه فى المطار كان بايعاز من مخابرات الحلفاء !

صفقات سرية تعقد فى الخفاء

• **واتصل** اريكسون برجال الزيت الالمان - لاسيما فى

(هامبورج) ـ وزار معمل تكرير البترول هناك ، وتحدث الى المسئولين ، وتناقش فى شروط العقود التى كان يبغى ابرامها . وكان يتطلع حوله ، باحثا عن أى زميل من المشتغلين بالزيت الذين عرفهم فى هذا الميدان ، فلم يلبث ان اهتدى ـ فى أول الامر ـ الى الكابتن « فون فونش » ، الذى قضى شطرا من مدة مرانه فى انجلترا ، وكانت له صلة فى يوم ما بشركة « شل » .

واذ كان « اريكسون » حريصا على أن تبقى صفقاته سرية ، فان أحاديثه مع « فون فونش » كانت من نوع مكتوم لا يدرى تفصيلاته سواهما .. وقد حدث ـ ذات يوم ـ ان دفع «اريكسون» الى هذا الزميل بوثيقة غامضة ، فلم يكن من « فون فونش » الا أن وضعها فى صندوق من الصفيح ، ودفنها فى الفناء الخلفى لداره ، مبالغة فى تكتم أمرها !

وعن طريق اتصالاته الاخرى ، تعرف السويدى الى الهر « فون شتيركر » ، وهو ممول كان يستثمر أمواله فى صناعة الزيت ، وكان من أسرة عريقة فى (هامبورج) . وقد أعطاه اريكسون وثيقة أخرى .. وبلغ من حرصه انه أخفى عن كل من الرجلين أمر مقابلته للآخر !

ولم تنقض على عودة « اريكسون » الى السويد سوى فترة قصيرة ، حتى بدأ يتلقى الدفعات الاولى من البترول الالمانى . وفى تلك الاثناء ، كان الحلفاء قد وضعوا اسمه فى القائمة السوداء ، فاكتملت عزلته عن أصدقائه القدامى .. وعانت زوجته السويدية من هذه القطيعة كثيرا .. ومع أنها

ظلت محتفظة بروحها المعادية للنازية ، الا أنها اضطرت الى أن تضع نفسها فى خدمة أصدقاء زوجها الجدد ، وهم النازيون .

كاد يفقد حياته فى غارة

• **وتعددت** رحلات « اريكسون » الى ألمانيا ، فى الاشهر التالية ، ومضى فى توثيق صلاته بأصدقائه من رجال « الجستابو » هناك .. فدعوه الى بيوتهم ، وأخذ – من ناحيته – يقدم لزوجاتهم هدايا من الزبد والصديريات الجلدية ، وما اليها من أشياء حرمن منها بحكم ظروف الحرب . واستمر فى عقد الصفقات مع رجال جدد من نوع « فون فونش » و « فون شتيركر » ، برغم ان الحصول على البترول الالمانى أخذ يزداد صعوبة ، اذ أن الحلفاء شددوا غاراتهم الجوية على موارده ..

ولقد كاد « اريكسون » أن يفقد حياته فى احدى هذه الغارات .. اذ كان فى زيارة لمعمل كبير لتكرير الزيت ، وطلب اليه المدير أن يبقى ليتناول العشاء معه – فى مكتبه – فتردد فى أول الامر . ثم وجد من الصعوبة بمكان أن ينسحب بدون أن يجرح شعور الرجل ، فتناول العشاء معه على مضض ، واستأنف مباحثاته معه ، فلم ينصرفا الا عندما انتصف الليل .. ولم ينقض وقت يذكر ، حتى وصلت قاذفات القنابل المتحالفة ، فدمرت المعمل كله .. وبذلك انتهت تجارة « اريكسون » مع العدو .. الى حين .

وأخذ تأثير غارات الحلفاء على الزيت الالمانى يتزايد

باطراد ، ولكن جزءا كبيرا من هذه الصناعة كان ـ فى أواخر ١٩٤٤ ـ لايزال مستمرا فى الانتاج . اذ كان الالمان يبادرون الى اصلاح مادمرته الطائرات بسرعة لم تكن لتخطر ببال الحلفاء . وكانت بعض معامل التكرير مخفاة بعناية ، فبقيت سليمة لم يمسها أذى .

« اريكسون » يبتكر مشروعا هائلا

• **وفى خريف** سنة ١٩٤٤ ، كان المجهود الحربى للحلفاء يتجه الى معركة (الرين) التى اقتربت فيها نهاية الحرب ، وحان الوقت للضربة القاصمة .. وأدرك « اريكسون » ان تجارته تقتضى الوصول الى الرجل الجالس على قمة « الجستابو » .. الى « هنريخ هيملر » بالذات . فقد كان يسعى الى صفقة كبيرة مغرية .. صفقة تمكنه من أن يطوف بمراكز صناعة البترول جميعا ، فى ألمانيا ، وأن يتفقدها ، ثم .. يحتكر الصناعة بأسرها .

وكان يفكر فى مشروع خليق بأن يجد هوى من الالمان ، لاسيما فى تلك الآونة التى اشتدت فيها وطأة الغارات .. كان يفكر فى انشاء معمل هائل لتكرير الوقود الصناعى ـ فى السويد ـ بتكلف خمسة ملايين من الجنيهات ، على أن يمول برؤوس أموال سويدية وألمانية مشتركة .

وكان من الطبيعى أن يجد الالمان مايروقهم فى هذا المشروع ، لسببين : أولهما انه سيقيم موردا من موارد الزيت الالمانى فى بلد محايد ، بمنأى عن متناول قاذفات

القنابل المتحالفة .. والسبب الثاني ان انشاء هذا المعمل كان وسيلة لنقل بعض الاموال النازية الى بلد محـايد ، فتبقى محفوظة فيها اذا كتبت على ألمانيا الهزيمة فى الحرب .

ووضع اريكسون تصميما للمشروع ، حمله الى صديقه القديم « فنكه » ، الذى رحب به وأيده ، واستطاع أن يجتذب اليه تحمس كبار النازيين ..

فى الطريق الى لقاء هيملر

• **وسار** المشروع موفقا ، وسط هالة من التأييد .. وفجأة ، انبعث صوت شذ عن العبارات المؤيدة .. وكان « لودفيج » ـ الملحق التجاري بالمفوضيةالالمانية بالسويد ـ هو صاحب هذا الصوت ، وقد راح يؤكد ان « اريكسون » غير مخلص .

كان « لودفيج » من شيعة « فون ريبنتروب » ، التى كانت تضم عددا كبيرا من رجال وزارة الخـارجية والدبلوماسيين الالمان . وكانوا ـ كلما طال أجل الحرب ـ اشتدوا عداء للجستابو ، ولهيملر بالذات ، وألقوا عليهتبعة الاصرار على المضى فى القتال ، استنادا الى تقارير ومعلومات غير مؤكدة .. على ان « هيملر » كان واسع الحيلة ، قوى النفوذ ، فكان يتغلب عليهم دائما .. وبفضل منـاصرته ، استطاع « فنكه » أن يتغلب على معارضة « لودفيج » ، وان يمهد السبيل لكى يلتقى « اريكسون » و « هيملر » .

وكان هـذا أعظم أمل تهفو اليـه أحـلام تاجر البترول

السويدى ، الذى بدا أن طموحه لم يكن يعرف حدودا ..

وفى أكتوبر عام ١٩٤٤ ركب اريكسون الطائرة من مطار (بروما) ، وحلق فوق مياه البلطيق الرمادية اللون ، ثم فوق سهول شمال المانيا ، حتى وصل الى مطار « تمبلهوف » .

ووجد فى انتظاره جناحا فى أجمل فندق لم تهدمه قنابل الحلفاء ، فى (برلين) .. وفى الصباح التالى ، جاءته سيارة سوداء كبيرة ، فيها حرس من « الجستابو » ، فأقلته الى مقر قيادة هيملر ، حيث رحب به رئيس « الجستابو » فى ود وبشاشة ، قائلا انه سمع عنه اشياء عظيمة من الهر « فنكه » . ثم تحدثا فى اسهاب عن مشروع معمل التكرير ، وحاجة « اريكسون » الى مشاهدة العمليات التى تقوم بها المعامل الالمانية ..

هكذا اكتسب ثقة السلطات ..

• **وسأله** هيملر فجأة : « ماذا يحدث اذا غزا الجيش الالمانى السويد ؟ » . فقال اريكسون : « لسوف يحارب السويديون ـ اذ ذاك ـ كأنهم شياطين الجحيم ! » .. كان اريكسون قد ادرك ان الوسيلة الوحيدة للتأثير فى نفس هيملر واكتساب ثقته ، هى عدم اللف والدوران ، والاجابة برد صريح .. ولو كان هذا الرد مما يسوء زعيم «الجستابو» العتيد .. فان كشف ما يسوء ، قد يبدو ـ أحيانا ـ لونا من الاخلاص !

وكان مصيبا فى رأيه هذا .. فقد اسفر حديثه مع هيملر

عن ظفره بوثيقة تمكنه من دخول أى مكان فى ألمانيا، ومشاهدة ما يريد من المنشئات الخاصة بصناعة الزيت .. كما أفردت له سيارة خاصة وكمية كبيرة من « البنزين » .

وقام اريكسون بعد ذلك برحلات شملت أوربا الوسطى — التى كان الالمان يحتلونها — من (كولونيا) الى (براج) ، فتفقد معامل (لوينا) و (اننـدورف) و (هالى) الكبيرة ، وتحدث الى المديريين وعرف ما يعملون وما يريدون ان يفعلوا .. وكأى خبير بفن البيع يدخل ارضا جديدة ، استطاع أريكسون ان يعرف الموقف كله . ثم عاد بهذه الصورة الكاملة » الى السويد ..

ولكن المشروع لم ير النور قط .. فان غارات الحلفاء لم تلبث ان دمرت البقية الباقية من موارد الوقود الالمانية ، ثم بدأت هزائم النازى تتوالى ، حتى انتهت بتغلب الحلفاء .

ولى عهد السويد كان جاسوسا !

• **ثم كانت** مفاجأة المفاجآت .. المفاجأة التى أذهلت الرأى العام فى السويد . فما ان انتهت الحرب ، حتى أقامت المفوضية الامريكية فى (استوكهولم) لاريكسون حفلة غداء كبيرة ، دعى اليها جميع اصدقائه الذين كانوا قد هجروه ..

وعلى المائدة ، دعى الجميع الى شرب نخب «أريكسون» ، وتهنئته على ما أدى من خدمات .. واذ ذاك عرف الاصدقاء

الذين كانوا يلومونه انه لم يكن خائنا للحلفاء ، وانما كان جاسوسا لهم

ونعود خطوات الى الوراء ، لنفهم القضية كلها :

علمت - بعد ذلك - ان ممثلا لمخابرات الحلفاء زار اريكسون - بعد نشوب الحرب مباشرة - فوافق رجل الاعمال السويدى على ان يعمل جاسوسا لهم ، ورفض ان يتقاضى عن ذلك اجرا ..

وكان لابد من اتخاذ اجراءات لحمايته والتستر على مهمته .. وهل من اجراء افضل من اظهار سخط الحلفاء عليه ؟ .. وهكذا وضعه الحلفاء فى قائمتهم السوداء ، بناء على طلبه .. وهو اسلوب لم يكن من المستغرب ، فى مناورات الجاسوسية ، فى الدول المحايدة .. ولقد كان للحلفاء عملاء من صنف « اريكسون » فى السويد ، بل ان الامير « كارل برنادوت » - الذى تعاون معه فى أول الامر - كان من جواسيس الحلفاء كذلك !

وقود الالمان لضرب المراكز الالمانية !

• **وسار** « اريكسون » فى خطته بنجاح فاق كل ما كان يخطر ببال المشرفين على عمليته .. بل انه كان يحصل على البترول وزيوت الوقود من المانيا ، فيعطيها لشركة « فاكوم » الامريكية وشركة البترول البريطانية .. فكان الحلفاء يستخدمون وقود الالمان للطائرات التى يضربون بها مراكز الوقود الالمانية !

على ان « اريكسون » لم يقنع بجهوده الفردية ، بل سعى الى الاستعانة بعدد من الالمان الذين كانوا يعملون فى صناعة البترول .. وكان هذا الاتجاه أخطر من كل الخطوات الاخرى التى اتخذها . اذ كان يكفى أن يخطىء الاختيار مرة ، فيقع على شخص يستنكر محاولته ويفضح أمره ، فتكون الطامة الكبرى .. ولكنه مضى فى حرص وحذر .. وما كان « فون فونش » و « فون شتيركر » سوى اثنين ممن استطاع ان يستميلهم للتعاون معه .. وما كانت الوثائق التى قدمها اليهما فأخفياها تحت الارض ، سوى اقرارات منه بتعاونهما مع الحلفاء أثناء الحرب ، لكى يفيدا من هذا التعاون اذا قدر للحلفاء ان ينتصروا

وكانت كل ورقة من هذه الوثائق كالسيف المعلق فوق عنق اريكسون .. ولهذا فانه كان يقدم على رحلاته فى المانيا بقلب خافق .. وكان يقضى الليالى مسهدا ، ويتوقع — فى كل لحظة — ان ينقض عليه رجال « الجستابو » ، لعثورهم على ورقة من هذا النوع ، ثم يقدمونه للمحاكمة كجاسوس .

وعاد « اريكسون » الى ميدانه الطبيعى ..

• **وقد** جاءت تقاريره وتقارير الذين كانوا يقومون بمثل هذه الاعمال الخطرة بثمرتها . ففى الاشهر التى سبقت معركة (الرين) ، اشتدت غارات الحلفاء على موارد الزيت الالمانى بفضل هذه التقارير ، حتى وصلت الى الذروة .

فكان طيارو الحلفاء ينطلقون فى حملاتهم ، وهم على دراية بالمواقع الصحيحة لمعامل التكرير ، كبيرها وصغيرها على السواء . وكان الالمان لا يكادون يفرغون من انشاء معمل جديد للتكرير ، حتى يكون الجواسيس قد أوضحوا موقعه على الخريطة ، فيتجه اليه طيارو الحلفاء ويدمرونه ، مهما تكن وسائل اخفائه متقنة ..

وبهذه الطريقة استنفد الحلفاء موارد البترول والبنزين الضروريين للقوات الالمانية .. وعند ما بدأ هجوم الحلفاء الكبير ، كانت جبهة القتال تزخر بعدد كبير من الدبابات الالمانية المعطلة ، التى لم تكن تستطيع ان تتحرك من مكانها لافتقارها الى الوقود .. وكانت طائرات كثيرة تلزم المطارات للسبب ذاته !

ولقد حقق الحلفاء العهود والمواثيق التى قطعها اريكسون على نفسه لفون فونش ، و فون شتيركر ، وغيرهما ممن تعاونوا معه . فكافأوهم عن جهودهم .. أما « لودفيج » ــ الذى كان يعرقل خططه ــ فقد ألقوا به فى السجن ، ولايزال فيه حتى الآن .. كذلك اعتقلوا « فنكه » ــ معاون هيملر ــ بعد أن قضى بضعة اشهر فى (الدانيمرك) مستخفيا .

وعاد « اريكسون » الى نشاطه المألوف فى ميدان البترول .. ولم يتبق له من مغامرات فترة الحرب سوى ذكريات .. ذكريات سجلت فى تاريخ الجاسوسية !

عندما ترفع الستار..



روائع المسرح العالمى
(التمثيلى والغنائى)

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى هذا الباب المسرحيات العالمية الآتية :

خطايا الحب • نزاهة الحكم • سلاح المرأة • فولبون • جيوكندا • كلام الناس • مدرسة الفضائح • سيرانو دى برجراك • لعبة الحب والموت • مروحة الليدى وندرمير • فاوست • فى سبيل الحب • الام • الملك يلهو • الجنس الآلى • هرنانى • ترويض النمرة • الحياة نفاق • أغلال الحب • المنافق • بيت الليل • علموهم الحب • زوج مثالى • سالومى • مدرسة الارامل • برهان الحب • لوسيد • كيف نقع فى حبائلهن • حلاق أشبيلية • الهاربة من الفضيحة • رجل الاقدار • جوديث • نيكراسوف • انباء مثيرة • الدروماك • جندى محترف • الشقيقات الثلاث • مهنة مسز وارين • الجحيم هو الناس •

واليوم ، أقدم لك مسرحية من روائع « جان آنوى » .


L'INVITATION
AU CHATEAU
PAR
JEAN ANOUILH
أقوى
من المال!
تمثيلية رائعة للمؤلف الفرنسي المعاصر: "جان آنوي"

عزيزى القارىء :

ليس «جان آنوى» غريبا عليك ، فقد عرفك به «كتابى» ، حين قدم لك ـ فى العدد (٣٨) ـ نموذجا من روائعه ، ممثلا فى مسرحية « برهان الحب » ، التى كانت صيحة ضد المال .. معبود البشر فى العصر الراهن .

وتمثيلة اليوم ـ التى نلخصها لك فى الصفحات التالية ـ نموذج آخر لعبقرية « آنوى » الفنية والأدبية .. انها صيحة أخرى ، يحذر فيها المجتمع البشرى من مدنيته الزائفة ، ويوسع هذه المدنية نقدا .. ولقد صاغها فى اسلوب فكه ، ولكنك تلمس تحت سطحه الاساس الفولاذى لموضوع جدى ، يعرضه فى مناظر حافلة بالحركة ، زاخرة بالشخصيات .. وفى سخرية مقذعة ، يهتك أستار المظاهر الزائفة ، ليكشف عن أسس مدنية عصرنا .. اسس قوامها المال والنفاق ، وهما اللعنتان اللتان لصقتا بالمجتمع البشرى ، لا يكاد يجد منهما مخلصا .. حتى حين يمل صاحب المال الكثير ثروته ، ويحاول أن يقضى عليها ـ بعد اذ تبين انها لا تجلب له سعادة ولا هناء ـ اذا المجتمع المنافق يأبى ان يفقد ثقته برجل المال ، ويصر على أن يعتبر رغبته فى الخلاص من ثروته لونا من « المناورات » فى « بورصة الاوراق المالية » ، فيقبل على أسهم شركات الرجل ، واذا اسعارها ترتفع اضعاف ما كانت !

و .. ولندعك مع التمثيلية ، تكتشف بنفسك نواحى الروعة فيها !

ترفع ستار الفصل الاول عن حديقة شتوية ، داخل هيكل من قضبان حديدية وألواح من زجاج ، وتطل على متنزه

فسيح ، وقد وقف ((**هوجو**)) ـ وهو شاب واسع التجربة فى عالم اللهو والمرح ـ يتحدث الى ((**جوشوا**)) ، رئيس خدم قصر مدام ديميرمورت ، عمة الاول .. ونفهم من الحديث ان ((**فردريك**)) ـ شقيق هوجو التوأم ـ قد قضى ليلته تحت نافذة ((**ديانا ميسرشمان**)) ، ابنة أحد كبار رجال الاعمال ، من أصحاب الملايين .

هوجو : هل أحببت يوما يا جوشوا ؟

جوشوا : عفوا يا سيدى .. لقد ظللت فى خدمة ((المدام)) ثلاثين عاما ، فأنا أكبر سنا من أن أحب ..

هوجو : أما سنى ، فهى سن الحب يا جوشوا .. اننى أقع فى الحب بحكم العادة ، ولكنى لا أتدله مثل أخى ، مع اننا فى سن واحدة ! .. لقد فكرت فى خطة .. كم الساعة الآن ؟

جوشوا : الثانية عشرة يا سيدى .

ويقول ((هوجو)) انه سيبدأ ـ بعد نصف ساعة ـ خطته الهائلة . ثم يخرج ، فيتبعه كبير الخدم . ولا يلبث ((فردريك)) أن يأتى ، ثم تلحق به ((ديانا)) ..

فردريك : ديانا ! .. كأنما انقضى عمر بأكمله مـذ رأيتك بالامس !

ديانا (تقف وتتأمله) : أيكما تكون ؟ **(تلاحظ استياءه)** آه ، أنت فردريك ! .. انك لتنظر الى كما يفعل الكلب الصغير الحائر ، وهو مالا يفعله اخوك !

فردريك : اذا كنت تفضلينه على ، فسوف أرحل وأموت !

ديانا : انك لتعلم اننى ما كنت لأخطئك الا عفوا ، فانتما متشابهان .. تصورنى وحيدة فى المتنزه ، فى المساء ، واذا بذراعين تطوقانى من خلف — ولهما ملمس ذراعيك — وفم يقبلنى ، ويبدو كفمك .. كيف يتسنى لى الوقت لأستوثق من أن قلب هذا المباغت هو قلبك ؟

ويؤكد لها « فردريك » بأنه لم يفعل شيئا من هذا ، ويتوعد بأن يناقش شقيقه الحساب ، فتضحك « ديانا » ، وتؤكد له انها انما كانت تداعبه بهذه القصة .

فردريك : لو أن هوجو كان يحبك ، لقتلت نفسى !

ديانا : هذا فظيع ، فلن يتسنى لى ان أعرف ايكما الذى مات .. ولسوف تكون هذه فرصة لأخيك ، فلا يلبث أن يأتى فيهمس فى أذنى : « صه ،ولا تقولى لأحد ! .. لقد ارتكبوا غلطة هائلة ، فانما كانت هذه جنازة هوجو ! »

وهكذا تمضى تداعبه ، ثم تؤكد له انها انما تحبه هو ، ولكنه يبدو محرجا ، خجلا ، حتى انها لتطلب اليه بلسانها أن يقبلها . ثم يخرجان ، فتفد **((ليدى انديا))** — وهى ابنة عم التوأمين ، وابنة أخ سيدة القصر — وبصحبتها **((باتريس بومبيل))** ، سكرتير « ميسرشمان » — رجل الاعمال المليونير — ومستودع سره . وندرك من حديثهما انهمامتحابان، وانهما يتكتمان حبهما هذا عن المليونير ، لانه يهوى السيدة .

ويخشى « باتريس » أن يكون « هوجو » قد اكتشف سرهما، فتحاول أن تطمئنه ..

ليدى انديا : أنا أعلم يا حبيبى اننى أمنح ميسرشمان متعة تسديد حساباتى ، وأدعه ــ فى كل ليلة ــ يسير ورائى الى غرفتى ليقبل يدى . ولكن هذا لا قيمة له ، فأنت وحدك المهم ..

***

ويجزع اذ تميل عليه ، محاولة أن تقبله ، وينبهها الى ما يتعرضان له من خطر ..

ليدى انديا : خطر ؟ ! .. ما ابــدع هــذا ، فانى أحب الخطر ، وأحب أن أكون مجنونة ! .. لا تنس انك تنتمى الى أسرة من ارقى الاسرات ، واننى ــ على أية حال ــ ليدى انديا .. وخليق بميسرشمان أن يحمد لنا اننا نجشم نفسينا عناء اغاظته ، فليس المال كل شىء !

ويخرجان ، فتدخــل **مدام ديميرمورت** ، فى مقعد ذى عجلتين ، تدفعه مرافقتها ((**كابولا**)) ، و « هوجو » .

مدام ديميرمورت : ليس المال كل شىء .. ما الذى تعنيه يا هوجو بأن لدى المستر ميسرشمان أكداســا من المال ؟ .. ماذا يفعل بها جميعا ؟

هوجو : يأكل الخضر المسلوقة (بوريه) ، بدون زبد ، ولا ملح .. ويشرب الماء القراح !

مدام ديميرمورت : ومع ذلك تقول ان ليدى انديا تسعى الى افلاسه ؟ .. انك مروج للشائعات ! أنسيت اننى عمتك وعمتها ؟ ! .. لن انصت اليك ! (**تأمر مرافقتها بأن تحضر لها منديلا ، لتقصيها عن المكان**) والآن ، أتعتقد حقا انه ينفق عليها ؟ .. هذا فظيع مهين ! .. ان الناس قساة ، وسيظنون اننى دعوت « دوروثى » وهذا الغنى - فى آن واحد - عن قصد !

هوجو : ان كل امرىء يعلم انك دعوت المستر ميسرشمان وابنته لان فردريك سألك ذلك . وسوف يعلن فردريك خطبته الى ديانا غدا !

مدام ديميرمورت : أجل .. تصور انه يتدله فى هوى هذه الفتاة حتى انه ليسألها ان تتزوجه ! .. لقد كان يبدو حزينا وقورا، حين كان يقبلنى فى صباح العيد، وهو صغير ، فكنت اسميه « القديس » .. وها هو ذا الحمل الصغير يوشك ان يجعل من نفسه قربانا ! .. لو انك كنت فى مكانه ، لاختلف الامر ، فانك أشبه بالحمل الذى يتحول فينهش الكاهن الاكبر قبل أن يقدمه قربانا !!

هوجو : ومن ادراك أن الزواج سيتم ؟ .. من يدرى ؟

ويفد ((**ميسرشمان**)) و ((**رومينفيل**)) - وهو رجل من أصحاب المظاهر - فسرعان ما تندمج ربة القصر مع المليونيرفى الحديث ، متباعدين الى خارج الحديقة الشتوية . ويحاول « **رومينفيل** » أن يبادر بالفرار ، اذ يلمح « **هوجو** » مقبلا،

ولكن هذا يفوت عليه الفرصة ، ويروح يساومه على أمر يبدو انه كان قد حدثه عنه من قبل .

رومينفيل (فى ضيق) : أواثق من أنك لست مجنونا ؟ .. هب اننى رفضت ؟

هوجو : انها تصبح فضيحة ..

رومينفيل : أية فضيحة ؟ .. لاغبار هناك على علاقتى بالفتاة .

هوجو : هب اننى أخبرت عمتى بأن رومينفيل قد أحضر صديقة صغيرة ، أنزلها فى الفندق فى (سانفلير) ، ليدخل على نفسه شيئا من البهجة اثناء وجوده فى القصر .. وهو يزورها ثلاث مرات فى الاسبوع . فما قولك ؟

رومينفيل : هذا غير صحيح . أمن الذنب أن أكون من رعاة الفنون ؟ .. لقد كانت المسكينة بحاجة الى رحلة ترويحية ، قبل ان تستأنف نشاطها فى « الباليه » ، اذ كانت شديدة الشحوب . انه مجرد شعور انسانى ان سألتها ان تقضى وأمها بضعة أيام .. انها ليست خليلتى البتة !

هوجو : من الذى تراه سيصدقك ؟ .. ليست عمتى على أية حال ! **(ينبعث صوت دقات تدعو الضيوف الى مائدة الغداء)** لنتظاهر بالود أثناء الغداء .. انهما ستصلان بعد قليل ، وقد أمرت « جوشوا » بأن ينبئنى بوصولهما لاستقبالهما ، على أن ينبىء عمتى بأن **« ابنة اختك »** قد وصلت !

ويجد « رومينفيل » أن الشاب قد أحكم خطته ، **فلايملك**

سوى أن يستسلم مكرها . ويخلو المسرح فترة ، ثم لا يلبث «جوشوا» ان يظهر متقدما «ايزابيل» — راقصة «الباليه» وعشيقة رومينفيل — وامها . وتبدو الاثنتان مبهورتين بمظاهر الترف والرخاء . ويقبل « هوجو » ، فيرحب بهما .

هوجو : أهذه هى الآنسة ايزابيل ؟ .. لم يخطىء ظنى ، فهى اكثر من فاتنة !

ويذكر لها انها لم تستدع لترقص ، وانما لتظهر فى الحفلة الراقصة التى ستقام فى المساء ، على أن تبدو أجمل من أية أنثى من المدعوات ، وعلى ان تزعم انها ابنة أخت رومينفيل .. وتلوح الفتاة خائفة ، ولكنه يعدها بأجر طيب ، وبأن يمنحها الثوب الذى طلبه خصيصا لها من (باريس) . ثم يأمر « جوشوا » بأن يقودها وأمها الى الحجرتين اللتين أفردتا لهما .

***

وتهبط الستار لترفع ثانية مؤذنة بأن الليل قد حل ، والسهرة وشيكة الابتداء . ونرى مدام « ديميرمورت » تتحدث الى كبير خدمها ، موصية اياه بأن ينعم النظر فى وجوه الضيوف ، حتى لا يتسرب بينهم غريب يتظاهر بأنه من علية القوم . ثم يخرجان ، فيفد « هوجو » و « ايزابيل » وقد بدت فى ثوب أنيق غال ، وفى أبهى زينة .

هوجو : انك رائعة ! .. لماذا ترتجفين بالله ؟ أخائفة من الحفلة ؟

ايزابيل : أجل .. ومن الغموض الذى تثيره حولها .. ومنك !

هوجو : تظنين اننى أجرك الى موقف مهين ! .. لا شك فى ان رومينفيل كان يحاول أن يشوه سمعتى . **(يدخل رومينفيل ، وهو يبدو مكروبا)** ها هو ذا ! .. انه يخشى أن تخطئى استعمال الشوك والسكاكين ، فيثب القوم على أقدامهم ، ويقولون : « لايمكن أن تكون هذه ابنة أخته ! » .. **(لرومينفيل)** انظر اليها وهى فى ثوب أشبه بصواريخ الاحتفالات .. لن ترى ابنة اخت أكثر منها تألقا ، ولا أبهى منها رواء ، لمجرد أن تظهر فى سهرة راقصة واحدة ، فى ليلة من أولى ليالى الصيف !

ويروح رومينفيل يدلى اليها ببعض آداب السلوك المرعية فى الطبقة العليا . ثم تقبل الام فيلومها « هوجو » ، اذ كان قد اتفق معها على ان لا تظهر قط حتى لا يشعر احد بوجودها . ولكن الام تملى بصرها بحسن ابنتها ، وهى تخال أن « هوجو » قد وقع فى هواها . ويجرها « رومينفيل » الى غرفتها ، اذ بدأ المدعوون فى الوصول .. وتبدو « ايزابيل » فاقدة الثقة فى نفسها ، موجسة من المغامرة .

ايزابيل : لكم أشعر بخجل !

هوجو : ولماذا ؟ .. أمن هذه الحفلة ، ومن الجو الغامض الذى أذكى خيال امك ، وجعلها تظن اننى أحبك ؟ .. انه أمر طبيعى . فأنا غنى ، أنتمى الى اسرة عريقة ، وقد اعتدت

ـ منذ أصبحت فى سن الزواج ـ أن تعزف الامهات فى أذنى انغام محاسن بناتهن ، حتى اصبحت اذنى لا تسمعها ! ..

وتخرج لتجدد زينتها ، فيدعو « هوجو » كبير الخدم ، ويوصيه بأن يستدرج الام الى غرفتها فيحبسها فيها، ويمنيها بمائتى فرنك ـ فوق الاجر الذى اتفقا عليه ـ فى مقابل ذلك . وبينما يغادر « جوشوا » المكان ، تعود ايزابيل .

هوجو : اقتربت الساعة العاشرة . لكم يبديك ثوبك فى شكل هيلين الطروادية . كان من الواجب ان اعد لك قصة تتفق مع العرف فى هذه الاوساط ، ولكن الذنب ذنبى ، لاننى لا أحسن الحكم على الشخصيات .. انك لست رعناء ، بل ان فيك سذاجة .. ولست خيالية ، وان كنت مرهفة العواطف .. ولست جامدة ، وان كنت حريصة .. هذه ـ فى الواقع ـ متناقضات .. الا اسمعى : ان لى أخا مدلها فى حب فتاة غنية جميلة ، أقيمت هذه الحفلة لتكريمها . وهى خطيبة له ، وهذا معناه انها تمنحه شفتيها مرتين أو ثلاثا فى اليوم، وتسمح له ـ بلا شك ـ بأن يعبث بيدها الرخصة، بينما تتجه بفكرها وجهة أخرى ! .. بل انها تذهب الى درجة انها تردد على سمعه انها تحبه ، وأميل الى الاعتقاد بأنها عاجزة عن أن تحب أحدا .. وان كانت ـ كمليونيرة مدللة الى درجة أفسدتها وخلقت فيها نزوات خيالية ـ أوحت الى نفسها بأنها تحب شخصا آخر ، هو .. أنا !

ايزابيل : وما شكل أخيك ؟

هوجو : نسيت أن أقول لك اننا توأمان . فنحن شديدا الشبه من الناحية الشكلية ، اما من الناحية الخلقية فنحن مختلفان اختلاف النهار والليل . ان شقيقى طيب ، عاقل ، كريم ، ذكى .. وأنا نقيضه . ومع ذلك فهى تحبنى دونه ! .. أما أنا فلست أحب احدا ، وهذا هو السبب فى ان بوسعى ان أدبر مهزلة الليلة وانا ساكن النفس . اننى اقوم الليلة بمهمة القدر !

ويطالبها بأن تستجمع جرأتها ، وأن تراقبه لتعمل وفقا لايماءاته واشاراته ،وان تطمئن الى انه سيكون بالقرب منها، يهمس اليها بما ينبغى أن تقول وتفعل.أما دورها ، فيتلخص فى أن تجعل نفسها مركز اهتمام الجميع ، حتى لتغدو المحور الذى تدور حوله الحفلة كلها .

هوجو : انطلقى على سجيتك، وسأوحى اليك بكل ماينبغى، وأوهمهم جميعا بأننى أحبك ! **(يبدو عليها أنها قد أحبته فعلا !)** وعليك ان تجعليهم يظنون انك تحبين شقيقى ! .. ومع انه قد لا يحول عينيه عن « ديانا » اليك ، فان عينيها هى ستخبرانه بأنك أجمل من فى السهرة ، اذ ان الغيرة ستشى بها !

ايزابيل : لسوف يجعله هذا أكثر حبا لها .

هوجو : ما أتفه الفكرة التى لديكم يا أهل المسرح عن الحب! .. أريحى بالك ، واطمئنى الى اننى قد أتقنت رسم خطتى، ولسوف يحبك شقيقى . وكل ما هنالك انه محتاج الى

ايقاظ ، لان «ديانا» ليست الصنف الذى يليق لحبه !

ويقبل « رومينفيل » منفعلا ، فان ام « ايزابيل » التقت بكابولا ـ مرافقة سيدة القصر ـ فاذا بهما كانتا زميلتين فى دراسة الموسيقى ، وكانتا صديقتين حميمتين ، ثم فرقت بينهما الايام .. وتفد الام ـ فى تلك اللحظة ـ مبهورة الانفاس ، مغتبطة بهذا اللقاء . وتذكر انها صارحت « كابولا » بكل شىء ، بعد أن أخذت عليها العهد بأن تكتم السر !

هوجو : وكيف كان بوسعك أن تنبئيها بالسر وانت لا تعرفينه ؟

الأم : حقا ، ولكننى ذكية مشبوبة الخيال ، استطعت أن افهم الامر . لقد قلت انك أحببت ابنتى ، واردت ان تحضرها الى هنا دون ضجة ، فزعمت انها ابنة أخت السيد رومينفيل .

ويهم « هوجو » بالانطلاق ليبحث عن « كابولا » انقاذا لخطته ، واذا به يراها تدفع مقعد عمته الى المكان .. ويسرع الشاب ورومينفيل الى اخفاء الام وراء أريكة .

مدام ديميرمورت : الى أين يا عزيزى هوجو ؟ .. لقد جئت لارى ضيفتى الشابة ، ولأهنىء صديقى العزيز رومينفيل بابنة أخيه . (**يرتبك رومينفيل**) انها فاتنة ! (**لهوجو**) لماذا لا تدعوها الى الرقص ؟ .. انهم يعزفون « الفالس » الاول !

ويستجيب الشاب ، ويخرج مع « ايزابيل » .. ثم تدفع « كابولا » مقعد مخدومتها الى الخارج ، و رومينفيل يسير الى جانبه .. وتتظاهر الوصيفة بأنها نسيت منديلها، لتعود الى الام ، فتتبادل معها حديثا سريعا ، نفهم منه انهما مجمعتان على أن « هوجو » يحب « ايزابيل » .

كابولا : سأبذل كل ما فى وسعى .. ان الامر يبدو أشبه بالقصص الخيالية .

وتسرع الوصيفة الى مخدومتها ، بينما تهبط الستار .

***

وعندما ترفع الستار عن الفصل الثانى، نرى .. «كابولا» تدفع مقعد مخدومتها . وفى مؤخرة المسرح ستار اضافية ، يظهر خلفها بعض الضيوف يرقصون .

مدام ديميرمورت : قربينى من الابواب ، لارى لهو الشبان الحمقى .. أليست هذه ابنة اخت رومينفيل ، التى تراقص ابن أخى ؟ .. انظرى الى الراقصين ! انهم يخالون انهم يمتعون أنفسهم ، ولكن كل ما يفعلونه هو انهم يجلبون الدوار لرؤوسهم الصغيرة الفارغة ! .. ان الحياة لم تعد بهيجة ، وقد آن لى أن أفارقها . أين الليالى الاسطورية التى عرفتها فى أيامى ؟ !

وتتحدث عما كانت عليه الاوساط الراقية فى الماضى .. وتروى كيف وقع حادث فى احدى الحفلات الراقصة ، فلم يجسر البوليس على أن يعكر صفو الحفلة ، بل ان رجاله

ارتدوا أزياء السهرة ، واندسوا بين الراقصين، حتى لايثيروا ضجة أو فضيحة .

كابولا : ربما كان ثمة شيء من هذا القبيل ، فى هذه اللحظة ! **(تبدى السيدة استنكارها)** هبى أن شابا أنيقا ، غنيا ، أحضر حبيبته الى الحفلة خفية ، تحت سحر الحب .. ولكنى أقول أكثر مما ينبغى ، فقد وعدت بأن لا أهمس بكلمة واحدة !

وهكذا تثير « كابولا » فضول مدام ديميرمورت ، فتلاحقها هذه بالاسئلة .

كابولا : انه سر يا سيدتى . انها تحبه ، وهو يعبدها .. وهى ففيرة ، ولكنه أحضرها الى هنا ، وانتحل لها شخصية أخرى .. قصة أشبه بالاساطير ! .. كل امرىء يسأل عن اسمها وعنها .. انها تتحرك بينهم كما لو كانت ملكة . ان هذه السهرة نصر لها !

ولا تزال بها سيدة القصر بالوصيفة ، حتى تتظاهر هذه بالاستسلام لالحاحها ..

كابولا : ان ابنة اخت السيد رومينفيل ، ليست ابنة اخته ! .. لقد أملى الحب مشيئته على شاب جد قريب منك .. ولكننى وعدت بأن لا أتكلم يا سيدتى ! .. كلمة منك يا سيدتى ، فاذا كل العقبات تتبخر !

مدام ديميرمورت : ادفعينى الى حجرتى ، وانبئينى بكل شىء .. كنت تقولين ان ابنة اخت رومينفيل ..

كابولا : ليست ابنة اخته يا سيدتى ، وانما هى حبيبة ابن أخيك . وقد اراد أن يبديها أجمل الموجودات ، فألبسها ثيابا اجتلبت من باريس خصيصا ..

وتخرجان ، و « كابولا » ماضيـة فى افشـاء السر ، على طريقتها الخاصـة .. وتقبل ليدى انديا و « باتريس » ، وهما يتكلمان ، وقد بدا على « باتريس » الارتباك ..

ليدى انديا : اننى قد أغرر بميسرشمان ، ولكنى أحب ان أحسن الظن به . يجب ان يكون الرجل الذى أحبه نبيلا ، وشجاعا .. والرجل الذى أخدعه نبيلا وشجاعا كذلك ، فان هذا يسبـغ على الحياة كرامة ممتعـة ! .. لا شك يا باتريس انك خليق بأن تستاء أيما استياء اذا هو لم يصرخ فى ضراوة ، وقد طفت عليه الغيرة .. ان الرجال الذين من صنفك لا يرغبون فى امرأة ليس لها من يحبها حبا ضاريا .. هب انه قضى على ثروتنا ، فيا للبهجة اذ نصبح فقيرين ! وما امتع الحياة اذ ذاك ! .. سـأغسل الاطباق وأطهو ، وأخبز .. لابد لي من ان اطلب الى حائكة ثيابى أن تعد لى بضع مراول صغيرة لطيفة !.. واذ ذاك سأعكف ـ بمكنستى الرشيقة ، ومجرفتى الانيقة ـ على العمل .. وستعمل انت فى مصنع ! .. اننى أعرف كثيرين فى صـناعة الصلـب ، وسيبحثون لك عن عمل بسهولة . وستعود الى البيت فى المساء ، تكاد تموت تعبا ، وقد انبعث منك عبير فظيع ، ولكنه سيكون لذيذا .. فأنظف جسمك يا حبيبى باسفنجة أنيقة .. ما أجمل الفقر !

ويأتى ميسرشمان ، فينبهها باتريس لتأخذ حذرها ، ولكنها تستهين بالعواقب التى يختشاها ، فينصرف بها تحديا للموقف . ولا يلبث أن ينصرف المليونير كذلك وينفلت « فردريك » من بين الراقصين ، ويلج الميدان . ثم تعد « ايزابيل » كأنها تبحث عن شخص ما . فيتأمل كل منهما الآخر .

ايزابيل : هل تؤمن بالاشباح ؟ .. انك تبدو أشبه بشبح لاخيك اذا أحزنه شىء ما ! .. فما الذى يحزنك وأنت شاب وسيم ، وغنى ؟

فردريك : أن أكون شابا ، وسيما ، وغنيا ، ولا أفيد من ذلك ..

ويستأذن ، ثم يسرع الى الحديقة . واذ ذاك يندفع « هوجو » فيقترب من « ايزابيل » .

هوجو : لقد كان هذا بديعا ! رائعا !.. انك مخلوق رقيق، وممثلة مدهشة ، ولن يملك فردريك أن يتأثر !.. يا لشقيقى العزيز المسكين ، انه لم يعتد تلقى نظرات الحسان ! .. الآن، استعدى !

***

ويختفى هوجو ، ليظهر فردريك ..

فردريك : لقد كان أخى يبحث عنك ، ألا ترينه مليحا !.. ان كلا منا صورة مطابقة للآخر ، ولكن الرجال وحدهم هم

الذين يخلطون بيننا . أما النساء فيعرفن دائما أينا أخى . فكيف يتسنى ذلك ؟ .. ربما لانه لاينظر اليهن !

ايزابيل : انه ليس مليحا فحسب .. أقصد أخاك !

فردريك : انه شديد الذكاء ، أشد منى ذكاء بكثير . وهو مقدام جدا، لا يعرف الخوف اطلاقا.. شيء واحد لا يستطيع أن يفعله ، ذلك هو انه لا يستطيع أن يحب ، ولعل هذا هو السر فى أنهن يحببنه ! .. ولكم يضايقه ان يرانى شقيا ، لا لأنه مشغوف بى ، وانما لانه لا يحب أن يرى الناس أشقياء ، لاسيما اذا كان الشقاء ناجما عن الحب ! .. صدقينى انه كان يبحث عنك . (**ينهض**) وأنا الآخر ابحث عن شخص آخر ، فهل ارشده الى مكانك اذا صادفته ؟ .. انه رفيق أكثر ايناسا منى !

ايزابيل : لا ، لا تخبره .. اننى أحب أن أكون معك أنت !

فردريك (ينظر اليها فى دهشة ، ثم يجلس متنهدا) : ياله من أمر محزن ! .. ان ما اوشك أن أقوله قد ينبو عن الذوق ، ولكن .. لو أن الفتاة التى أسعى اليها ـ دون أن أوفق ـ قالت ما قلته أنت الآن ، لمت من السعادة !

ولا يلبث أن ينصرف فردريك ، فيظهر هوجو . وتبادره ايزابيل بالرجاء أن يعفيها من الدور الذى استأجرها لادائه ، فيأبى ..

ايزابيل : لماذا خلقت بلا قلب ؟

هوجو : لان أخى أوتى قلبا أكبر مما ينبغى لواحــد ! .. لقد ولدنا معا ، وقسـمت بيننا الاشياء ، فـكان القلب من نصيبه هو .. قولى لاخى انك شقية ، فسرعان ما تسبحين معه فى فيض من العطف . وهذا عين ما ابتغيه !

ايزابيل : اننى لا أحفل بأخيك ، ولا بشغفائه من حبه ، ولا بالظهور جميلة انيقة ، ولا باجتذاب انظار الرجال جميعا ..

ونفهم انها احبته هو ، ولكنه يأبى أن يفهم ذلك .. وتبكى فيغتبط لانه كان يريدها أن تبدو باكية . وفجأة يلمح أخاه مقبلا ، فيركع أمام الفتــاة ليظهر كمــا لو كان متيمــا بها . وينهض فيحتويها بين ذراعيه ويقبلها ـ امعانا فى التظاهر ـ فتطمئن الى أحضانه . ولكنه سرعان ما يفلتها ويغادر المكان، فيدخل أخوه ، ويراها منخرطة فى البكاء .

فردريك : اتبكين ؟ .. كان جديرا بك ان تكونى سعيدة لان أخى قبلك ، فان الفتاة التى يقبلها أخى ترقص طربا .. يكفى الحفلة ان يكون فيها شـقى واحد ، هو أنا .. وانى لاكره ان تكونى انت الاخرى شقية .. سأصارحك بأمر : ان ديانا اختارت ان تكون خطيبتى لانها لم تستطع ان تكون خطيبة لشقيقى .. ارتضت النسخة الاخرى له !

ايزابيل : لو صح هذا لكان مدعاة للخجل !

فردريك : لا ، فقد ألفتــه واعتدته .. كانت المربية اذا أرادت أن تعاقبه ولم تجده ـ ونحن صـغيران ـ تصب

عقابها على رأسى .. انك مجدودة لان أحدا لا يأخـذك على انك شخص آخر !

تجمد ايزابيل فجأة ، وتهز رأسها لشخص يختبىء بين الكواليس . فان « هوجو » لا يرضى عن تصرفاتها . وتحت ايماءاته تصارح فردريك بأنها تحبه، ولكنه يبادر بالانصراف. فتهرع لتغادر المكان ، واذا هوجو يظهر ، ويجرها من يدها..

هوجو : لماذا تهربين ؟ هذه أول مرة يصارحه فيها انسان بالحب .. الآن لابد من وخزة من الغيرة ، والدم لا يزال حاميا .. لابد من رجل ثالث يدعونى للنزال لاننى لا أفارقك لحظة .. تصورى ! مبارزة فى ضوء القمر ، وطلقة مسدس تقطع على القوم أحاديثهم ، وتسكت الموسيقى ، ويتدافع الجميع الى الحديقة .. ثم تلقين أنت بنفسك ـ وقد اختبل عقلك بالحب ـ فى البحيرة .. ليس من المهم أن تكونى ملمة بالسباحة ، فالبحيرة ليست عميقة ، وسأكون هناك لانتشلك ، وألقى بك على الحشائش ، عند قدمى شقيقى ، وأصيح فيه : « انظر ! هذا من عملك ! » . فاذا لم يحبك بعد هذا .. **(يحتضنها فجأة)** سأعطيك ثلاثة امثال الاجر الذى اتفقنا عليه ، وسأشترى لك ثوبا آخر !

***

وتفاجئهما « ديانا » . وما أن تتبين انه « هوجو » وليس « فردريك » ، حتى تقول : « ظننتك فردريك مع هذه الفتاة .. معذرة ! » .. وتهرع ايزابيل مغادرة المكان .

هوجو : ان فردريك يهيم وسط صحراء المرح كروح معذبة .. أتسألين عنه لترضى نفسك اذ حطمت فؤاده الليلة ؟

وتسأله ان كان هو الذى احتضنها من خلف — فى المتنزه — ليلة أمس ، فيؤكد لها انها مخطئة .

ديانا : انك تخطىء اذ تتلاعب بعواطف أخيك .. ولو كنت تحبنى ، بل ولو كان حبك لى أقوى من ان تملك زمام نفسك .. اننى أكرهك !

ويحاول أن يستثير غيرتها باطراء جمال ايزابيل ، ثم ينصرف . وتبقى ديانا وحدها برهة ، ثم تنادى أباها لتلومه على انه لم يستطع بماله أن يسعدها .. أن يشترى لها « هوجو » !

ميسرشمان : ولكنى لا أستطيع أن أشترى لك الاخوين معا ، لا لأننى لا أملك مالا كافيا ، وانما لان العرف لم يجر بهذا ..

ديانا : انك لست من الغنى بحيث تشترى لى الذىأفضله، ولذلك اضطررت الى ان ارضى بالآخر . فانظر ماذا يجرى لى ! .. اننى متأكدة من أن « هوجو » هو الذى أحضر هذه الفتاة متعمدا لتشغل فردريك عنى .. ثم أن هوجو — البارد، الذى لا ينظر الى أحد — لا يكاد يحول عينيه عنها ، كأننى لست هنا .. هذا فظيع !

واذ يعلم المليونير أن الفتاة التى شغلت الجميع عن ابنته هى ابنة اخت رومينفيل ، وأن هذا عضو فى مجلس ادارة بعض شركاته ، يقول : **« قودينى اليه ! .. ماذا تريدينه على أن يفعل ، يا ابنتى الحبيبة ؟.. اتريدين أن يقصى الفتاة فى أوج الحفلة ؟ .. انه فى قبضتى ، ويكفى أن أرفع اصبعا واحدا ، فيهبط دخله الى النصف ! »**

ويخرجان ، فيقبل بعدهما « هوجو » و « باتريس » .. ويتحدث الاول الى الثانى عن علاقته بالليدى انديا ، متحرشا به فى صراحة لا تخفى على «باتريس» ، ثم يكشف عن غايته..

هوجو : لو أن ميسرشمان علم بأن الليدى أنديا عشيقتك، لقصم عنقك !

باتريس (فى جزع) : لقد احتملت هذه العلاقة عامين .. اربعة وعشرين شهرا .. مائة واربعة اسابيع .. سبعمائة وثمانية وعشرين يوما تهد الاعصاب ..

هوجو : لا بأس ، سينتهى كل شىء الليلة ، اذا ساعدتنى ..اما أن تساهم فى خططى الليلة ، والا فسأعمل على أن يعرف مخدومك بعلاقتك بحبيبته .. **(يتبدى الذعر على باتريس)** اختر لعنقك الطريقة التى يقصم بها .. هنا ـ الليلة ـ فتاة جد فاتنة ، ومن المهم جدا ، لاسباب لا استطيع ايضاحها ، أن تتظاهر بأنك مدله فى هواها، وانك قد رأيتنى فى أحضانها ، مما يثير غيرتك ، فتعرك أذنى .. ونتبارز ـ

تحت ضوء القمر - بالمسدسات .. لا تخف ، فأنا ماهر فى الرماية ، وأعدك بأن لا أوذيك !

ويقبل باتريس الخطة مكرها. ويخرجان ، فلا تلبث أن تفد « كابولا » وبرفقتها أم « ايزابيل » وقد ارتدت ثيابا فخمة ، نفهم أن الدوقة قد خلعتها عليها ، لغاية فى نفسها .. ويدخل جوشوا .

الأم : اعلن للقوم مقدمى ، أيها الرجل الطيب .. اسمى الكونتة فونيلا !

جوشوا (يخرج صارخا) : الى يا سيد هوجو ! .. النجدة يا سيدى !

وتحضر مدام ديميرمورت فى مقعدها، فتتأمل ام ايزابيل . واذ ذاك يفد هوجو بصحبة جوشوا .

مدام ديميرمورت : سيسرك يا عزيزى هوجو أن تلتقى بواحدة من أعز صديقاتى وأقدمهن .. الكونتة فونيلا . لقد تعارفنا فى ايطاليا . هيا ادفعى مقعدى يا كابولا ، وتعالى ياعزيزتى الكونتة نتحدث عن (البندقية) ، وأقدمك لضيوفى ..

وتخرجان ، فيقف جوشوا مستاء أمام هوجو . واذ ذاك يقبل رومينفيل منزعجا ويقول : « اوقف كل شيء ، فقد حدثت نكبة ! .. يجب أن ترحل ايزابيل فورا ، والا قضى على بالافلاس ! » . ونفهم ان « ميسرشمان » بر بوعده لابنته .. وما ان يعلم رومينفيل ان ربة القصر تقدم أم «ايزابيل» الى ضيوفها على انها كونتة ايطالية ، حتى يسقط فى يده ..

ويقف حائرا مع هوجو . وفى تلك الاثنـاء ، يفـد باتريس ليتحرش بهوجو ـ كما اتفقا من قبل ـ فيدفعه هـذا فى ضيق ، وهو يقول : « لا ، ليس الآن .. ياللك من مزعج ! .. تعال يارومينفيل لنلحق بايزابيل قبل ان تلقى بنفسها فى البحيرة ! »

***

وترفع الستار عن الفصل الثالث ، فاذا ايزابيل تجلس فى منتصف المسرح ، و « هوجو » يتمشى حولها، وهو مهتاج لان ظهور أمها يفسد عليه خططه .

هوجو : آه ، وجدتها ! .. انك انتصرت واستطعت بفضل ارشاداتى أن تجعلى أمهات الفتيات اللائقات للزواج يتطلعن اليك .. ولكن هذا كله ليس سوى بداية لايقاظ فردريك المسكين .. والآن ، سأنشر شـائعة بأنك لست ابنـة اخت رومينفيل ، وانما أنت ابنة أمير برتغالى ، كان قائدا لاسطول غرق فى البحر .. وانك تظهرين فى المجتمع لاول مرة ـ بعد الحداد ـ تحت اسم منتحل .. وبعد منتصف الليل، عند ما تكون هذه القصة قد طارت من فم الى فم ، وعند ما تكون ديانا قد ذوت لفرط الغيرة ، ويكون أخى الحائر قد أنس الى ابتسـاماتك ، سأعتلى مقعدا ، وأصيح فى الجميع : « ايها اللوردات ، سيداتى ، سادتى : لقد خدعتم الليلة ، أيها الحمير الاعزاء ! .. خلال هذه الساعات القلائل ، استطعتم أن تكشفوا ما فى قلوب هؤلاء الشابات من صخور ، وزهور

ذابلة .. **(واتعمد الاشارة نحو ديانا)** واستطعتم أن تروا **(ايماءة خفيفة نحوك)** شيئا أشبه بالملائكة ، ويفوق الواقع ! .. ولقد كنتم مخدوعين ، فان ما كنتم تسمونه جاها ، وتربية ، ومكانة ، ليست سوى اصطناع وتظاهر .. أما هذه الفتاة الملائكية التى بهرتكم الليلة ، فمجرد فتاة من العامة ، أجيرة لتلعب هذا الدور . فهى ليست ابنة اخت رومينفيل، ولا ابنة أمير ، ولا شىء على الاطلاق . وما كان أحد ليحس بوجودها ، لو اننى أحضرتها بشكلها الطبيعى ، ولكنى أردتها الليلة على أن تمثلكم انتم .. لقد دفعت بها بينكم ، فى ثوب من صنع حائكة ثياب نسائكم ، مستخدمة ما تستخدمون من كلمات ، فكان هذا كافيا لان يزيح جانبا كل ما لجمال مجتمعكم وغانياته من مكانة وعزة .. واذا كل ما فى هذا المجتمع من جمال ، مجرد غرور ! .. وأرجو أن يكون أخى فردريك – على الاقل – قد أبصر النور.أما أنا فقدابغضتكم، وسأرحل منذ الغد الى جوف افريقيا ، فى أول قطار ! » .. مارأيك يا ايزابيل ؟

ايزابيل (بصوت خافت ، بعد فترة صمت) : وأنا ، ماذا يجرى لى ؟ !

هوجو : تعودين من حيث أتيت ، ومعك المكافأة التى تستحقين ، متأبطة ذراع امك ، متكئة على رومينفيل ، وقد فزت بثوب بديع ، وذكرى هنيئة ! .. **بعد أن نكون قد ضحكنا من كل هؤلاء الناس !**

ايزابيل : لا .. اعط الثوب لسواى، ودعنى أرحل فورا، وأعدك بأن أحدا لن يسمع عنى ثانية .. من الظلم أن لا تفكر الا فى الطرب الذى تجنيه انت ..

تتهالك فى الاريكة متأوهة فى ألم ، بينما يخرج هوجو .. وتقبل ديانا .

ديانا : حقا ان ثوبك أبدع ثوب ، وانك لتلوحين جميلة .. وقد تكونين غيرمكتملة الصقل والتهذيب ، كما ان مساحيقك وعطرك ليست من أجود الاصناف ، ولكنى أرى من مظهرك أنك تستيقظين مبكرة ، وتنامين فى ساعة متأخرة ..

وتمضى « ديانا » فى تعبيرها والتحرش بها ، ثم تضع قدمها على ثوب ايزابيل فتمزق ذيله ..

ايزابيل (فى حسرة) : هل الاساءة الى الغير تبعث السرور فى النفس ؟ .. وهل بوسعك ان تشعرى بالشقاء كذلك ؟

ديانا : ان لدى مالا كثيرا جدا .

ايزابيل : وفردريك يحبك ..

ديانا : ولكنى لا أحبه ، وانما أحب هوجو ، وهو يكره مالى !

ايزابيل : ليس أسهل من أن تصبحى فقيرة .. اننى لا أبذل جهدا فى فقرى !

ديانا : انك لا تدرين مدى حظك..ان أمثال حفلة الليلة عادية عندى .. ابدا لن اشعر مثلك بفرحة كتلك التى خامرتك لانك « مدعوة الى قصر كبير » .. اؤكد لك أن ليس للمال قيمة الا لدى الفقراء !

ايزابيل : وهــذا دليل على أن العالم مختل ! **(تتقدم من ديانا)** اننى تلقيت اهانات ، وأوذيت ، ومزق ثوبى الوحيد ، لاننى من الفقراء .. وسأفعل الآن ما يفعله الفقراء دائما .. سأترك الكلام الى الفعل !

ديانا : اخرجى أيتها المغامرة الصغيرة !

ايزابيل : اذهبى انت وابكى على ملايينك بعيدا ! .. لقد كنت غبية اذ قضيت كل هذه الدقائق أحاول أن أفهمك . أما الآن ، فسأستخدم لغة الفقراء ! .. لقد قطعت ثوبى ، وسأمزق وجهك بدلا منه !

***

وتنقض على ديانا تضربها ، وتشـد شعرها ، وتخمش وجهها . وتصرخ ديانا ، ولكنها لا تلبث أن تكف عن الصراخ فجأة ، وتقول : « لقد كنت فقيرة يوما .. كنت فى العاشرة ، عند ما اعتدت ان أخوض المعارك مع من هم أكبر منى ، فى ميناء استانبول ! » .. وتروح تدافع عن نفسها . ويشتد الصراع . ويفاجئهما جوشوا فيصرخ مذعورا ، وينطلق باحثا عن هوجو . ويقبل فردريك ، فيقف صامتا . واذ ذاك تبتعد كل من الفتاتين . وتنهض ايزابيل ، مشعثة ، فتتقدم منه ..

ايزابيل (وهى تظنه هوجو) : أراض أنت الآن ؟ .. ألا ترى انك نلت النجاح الاكبر ؟ .. اذا لم تكن قد اعتليت مقعدا ، وأنبأت القوم بحقيقتى ، فسأذهب أنا وأعلنها ، وانا على

حالى هذه . أأنبئك بخطتى ؟ .. سأهين أمى أمامهم ، وأكشف عن اصلها ، فاذا الكونتة ابنة رجل كان يبيع الورق لكسوة الجدران ، ويحمل لفات الورق على ظهره ، والمحلول اللاصق فى يده .. فاذا كسب خمسة فرنكات اعتبر نفسه سعيدا ، اذ يستطيع أن يبتاع خمرا دون ان تدرى زوجته . هكذا هم الفقراء ! .. لقد أردت أن تلعب بهم الليلة ، لأنك تشعر بضجر ، ولكنك ستتبين كم كنت مخطئا . انني لم أكن سعيدة منذ أتيت الى هنا .. وما ذلك الا لانك لم تفهم – أو أبيت أن تفهم – اننى احبك ، واننى من أجل هذا الحب بذلت كل ما فى وسعى لابهر الانظار .. ومن أجل هذا الحب تظاهرت بالحب لاخيك .. ومن أجل هذا الحب كنت على استعداد لان ألقى بنفسى فى البحيرة .. افتظننى – لولا هذا الحب – كنت أقبل ان أكون دمية فى يدك ؟

فردريك (متلعثما) : ولكن .. ولكنه لم يكن ..

ديانا : حقا ، انظرى اليه .. ان وجهه يحتقن ارتباكا . انما تقصدين بقولك أخاه ! .. هيا يا فردريك ، ولا داعى لان تأسف عليها ، فان هوجو لن يلبث ان يرسل جوشوا لينقدها أجرها ، فترحل ..

فردريك : لا تتكلمى بهذه اللهجة يا ديانا !

ديانا : تعال فورا ، والا فابتعد عنى منذ اللحظة !

وتنصرف مغضبة ، بينما يبدى فردريك عطفه على ايزابيل ،

ويأخذ فى الاعتذار اليها ، ثم ينسحب . واذ ذاك تدخل الام فى اضطراب وأسى ، اذ أن « الشاب قد جن ، واعتلى المقعد، وأعلن اشياء فظيعة ! » .. **لقد كشف « هوجو » السر .**

الام : اسمعى، لقد تحدثت طويلامع رومينفيل، فصارحنى بأن ما حدث الليلة قد أيقظه ، وانه كان يضع عينيه عليك منذ أمد طويل . ومن ثم فسيكفلنا معا ، وما ان يسوى أموره مع اسرته حتى يتزوجك ..

ايزابيل : سنرحل فورا . اخلعى ثيابك الفخمة فى الحال !

يدخل ميسرشمان ، فيبدى للام رغبته فى أن يتحدث الى ابنتها على انفراد . وما ان تخرج الام ، حتى يلتفت الى ايزابيل ، ويبادرها قائلا :« ارحلى فورا ، دون أن يراك أحد، وسأكون جد شاكر لك .. سيكون رحيلك هدية أقدمها لابنتى .. فكم تريدين ؟ »

ايزابيل : لاشىء .. فلقد كنت راحلة بدون أن تسألنى !

ولكنه لا يقنع .. لقد اعتاد أن يدفع فى مقابل ما يطلب ، وهو يأبى ان يتحلل من هذه العادة ..

ميسرشمان : لست أحب الاشياء التى لا تكلفنى شيئا ، فقد جربتها فى حياتى ، ووجدتها فادحة الثمن .. **(يخرج حزمة من الاوراق المالية من جيبه)** انظرى الى هذه الحزمة، انها اوراق مالية جديدة ، نظيفة !

ايزابيل : لست أقصد أن أخلف لك ذكريات تشقيك ،

ولكن صـدقنى حين أؤكد لك اننى لا أريد مالك ! .. لو لم تكن قد استبقيتنى ، لكنت قد رحلت فعلا .. وهكذا ترى أنه ليس ثمة ما أستحق عليه أجرا منك !

ولكنه يصر على أن تحدد المبلغ الذى تريده، ويعرض عليها أن يجعلها من الغنى ، بحيث يخطبها فورا أعظم الموجودين جاها ، فتتشبث بالرفض فى اباء .

ميسرشمان : ترى ماذا ينبغى أن أفعل ؟ .. اننى لم أعد أومن بمـالى ، فهو لا يجلب سـوى التراب ، والدخان ، والغثيان ، وسوء الهضم .. حتى اننى لا آكل سوى الخضر المسلوقة ، ولا أشرب سوى الماء القراح ، ولا أحصـل على لذة من خليلتى الباردة كالثلج .. بل اننى لا أتألم حين أراها تخدعنى وتخوننى ، لاننى فى الواقع لا أريدها .. ولا أريد شيئا ! اننى ترزى فقير من (كراكاو) . وكانت فرحتى الحقيقية الوحيدة ، يوم صنعت أول حلة بيدى ، وأنا فى السـادسـة عشرة من عمرى ، ولكننى منذ ذلك الحين لم أنجح اللهم الا فى جمع المال وتكديسه ..أبدا لم أفلح فى أن اجعل احـدا يحبنى .. ولا ابنتى ! فاعطفى على ، واقبلى مالى !

واذ تمعن فى الرفض ، يمزق بعض الاوراق المالية ويذروها فى الهواء ، قائلا فى هياج : « هاك اذن ! .. انها ــ من حيث قيمتها ــ تمثل بيتـا فى الريف .. حلم صـغار أصحاب الاسهم ! » . وتشاركه ايزابيل فى التمزيق ، فى طرب ..

ميسرشمان : هاك مصنع ..

ايزابيل : وها هى ذى قبعة ..

ميسرشمان : وثياب .. ولفات لا حصر لها من القماش .. وفراء ..

ايزابيل (ماضية فى التمزيق) : والتيل الجميل ، والحرير الغالى ..

ميسرشمان : والعقود ، والاساور ، والخواتم .. لسوف تندمين !

ايزابيل (منهمكة فى التمزيق) : ابدا .. البتة ! **(تنظر اليه وهما يجثوان على الارض)** أقسم أن جمع هذا المبلغ لم يكن مرهقا بقدر ما كان تمزيقه !

ميسرشمان : اننى شقى !

ايزابيل (بابتسامة ذابله) : وأنا ايضا !

ميسرشمان : اننى الوحيد فى هذا القصر الذى يفهمك .. لقد ظللت أمدا طويلا مهانا ، حتى صرت أقوى الجميع ، واذ ذاك أصبح فى وسعى أن أقلب الاوضاع !

يدخل جوشوا فيبهت لمرآهما وسط النقود الممزقة . ثم يعلن أن « هوجو » يريد أن يدفع للفتاة حسابها .

ايزابيل : قل له اننى لا أدينه بشىء ، فقد دفع مستر ميسرشمان عنه !

وتخرج ، فيراقبها المليونير ، ثم ينهض متثاقلا

ميسرشمان (لجوشوا) : لا بد انك قرأت التوراة يا صديقى ، وصادفت قصة شمشون .. لقد قصوا شعره ، وأشقوه ، وسخروا منه ، وفقأوا عينيه .. وفى ذات يوم ، وهن احتماله ، فسألهم ان يقودوه بين أعمدة المعبد .. وكان

ذا قوة هائلة ، فلف ذراعيه حول عمودين ، وشدهما اليه .. وهوى المعبد على ألفى نسمة كانوا يصلون لآلهتهم الزائفة ، ولا يرون فى شمشون سوى أحمق مجنون ..

جوشوا : ولكن المعبد انهار فوقه هو الآخر يا سيدى .

ميسرشمان : لم يكن هذا بالامر المهم .. سأفعل الليلة كما فعل شمشون ، ولكن .. على وعلى أصدقائى ! .. سأقوم بعدة اتصالات تليفونية مع الخارج ، وسرعان ما ستنبعث ضجة ، ويبدأ المعبد فى الانهيار ! .. لا داعى لأن تفهم ، بل خذ هذه الفرنكات الالف ، وانس كل ما قلت !

***

وترفع الستار عن المنظر الثانى ـ من الفصل الثالث ـ ومدام ديميرمورت جالسة فى مقعدها ، تنظر خلال منظار مقرب ، والقصر فى هرج ، يبحثون عن «ايزابيل» .. وتراها السيدة ـ خلال منظارها ـ وهى توشك أن تلقى بنفسها فى البحيرة ، فتكاد « كابولا » أن تجن ، وتناشد مخدومتها أن تأمر بانقاذها .

مدام ديميرمورت : انها لن تغرق ، فان هوجو هناك ، والماء ليس عميقا . كل ما هنالك انهما قد يصابان ببرد ، فاسرعى وأحضرى بعض الاغطية ليلتفا فيها ! .. **(تخرج كابولا)** جوشوا ! جوشوا ! **(يقبل كبير الخدم)** اخشى أننا لن نلبث أن نشهد مأساة صغيرة .. صدمة عاطفية ، ومحاولة للانتحار غرقا . فاذهب الى المطبخ واطلب شرابا ساخنا .

وينطلق « جوشـوا » .. وبعد قليل ، يدخـل هوجو و ايزابيل ملتفين فى الاغطية .

مدام ديميرمورت : لننتهز فرصة وجودنا على حدة لبضع دقائق . أنظر الى يا عزيزى هوجو .. ان ايزابيل تبدو أجمل منظرا حين يتهدل شعرها .. هل من المعتاد ، عند أول خيبة للحب ، أن يسير المرء الى البحيرة ؟

هوجو : أعتقد ان الذنب كان ذنبى ، فقد سألتها أن تتظاهر باغراق نفسها من اجل فردريك ، ولكننى ألغيت هذا التدبير ..

مدام ديميرمورت (لايزابيل) : ولماذا أردت أن تغرقى نفسك ؟

هوجو (لايزابيل) : ثم ان هذا لم يكن فى اتفاقنا ..

ايزابيل (لهوجو) : لقد انتهى اليوم الذى استأجرتنى له مذ أرسلت لى رئيس الخدم كى يدفع الحساب . وأرى ان من حقى أن أقتل نفسى اذا شئت !

مدام ديميرمورت : هذا حقها ولا شك . فها قد اقترب الفجر ، وأوشكنا أن ننتقل الى صباح الاحد .. واذا لم يكن للاجير الحق فى ان يقتل نفسه فى صباح يوم العطلة ، فلن نلبث أن نرزأ بثورة ! .. اتعرف انك مجنون يا هوجو ؟ **(تلتفت الى الفتاة)** انه لا يحبك يا عزيزتى ، ولن يحب أى مخلوق .. وهناك امر آخر : انك تظنين نفسك مفتونة به، ولكنك لا تحبينه فى الواقع . انظرى الى شكله ، الا ترينه مضحكا ؟!.. ما ان يدب فيه أتفه شروره ، حتى يغدو بشعا ، كما هو الآن ، اذ نضايقه .. ما من امرىء يكون مليحا ،

اذا لم يكن مفعما بالشعور الانسانى !

وينهض « هوجو » منفعلا ، فيغادر المكان . ولا يلبث أن يفد فردريك .

مدام ديميرمورت : انظرى اليه يا ايزابيل . أليس على صورة الآخر تماما ؟ **(لفردريك)** هاك شابة أوشكت أن تغرق نفسها ، وتأبى أن تذكر السبب !

فردريك : اننى اعرف السبب . **(لايزابيل)** وددت أن أساعدك ، ولكنى لا أملك شيئا .. على ان هناك ما أود ان اقوله لك . فعند ما تركتك كنت جبانا لآخر مرة ، اذ تبعت « ديانا » ، ولكنى لم اتمالك أن لمتها على قسوتها معك ، وقد فسخت خطبتنا ! .. لقد تبينت أن ليس بوسعى ان أحب امرأة بهذه القسوة !

مدام ديميرمورت : وكذلك ايزابيل . فقد بدأت تتبين انها لم تحب هوجو قط !

فردريك : لقد نفضت يدى من الحب ، وسأبحث عن جزيرة مقفرة ، بعيدة عن كل شىء .

مدام ديميرمورت : وكذلك ايزابيل ، فاحرصا على أن لاتكون جزيرتاكما المقفرتان متباعدتين ، حتى تستطيعا أن تتزاورا ، كمايتزاور النساك !.. اننا – معشرالبشر – حائكون غير حاذقين ، نقص القماش بدون قياس ، ثم اذا وجدناه غير مناسب لأجسامنا ، صرخنا نطلب النجدة .. ولا نقنع بأن نكون عميانا ، بل نصبح بلا سمع كذلك ، فنمضى معولين ، دون أن نرى أو نسمع من يكون بجوارنا ، ثم نقول اننا نتخبط بلا معين ! .. على ان ثمة عجوزا بدأت ترى بجلاء ،

لحسن الحظ .. ألم تسمعى ـ أيتها الشابة ـ هذا السيد وهو يطلب النجدة ؟.. خذيه الى المتنزه ، وصارحيه بسر شعورك بالشقاء ، وسيصارحك بالسبب فى أنه يرى أن الحياة قد انقضت بالنسبة اليه !

فردريك (وهو يخرج مع ايزابيل) : لقد كان ذنبى أننى مغفل ، اذ توهمت أن النساء ذوات قلوب دافئة ووفاء !

ايزابيل : ولكنهن لسن كذلك ، وليس بوسعهن أن يكن كذلك !.. ولقد خلت أن من الممكن للرجال أن يكونوا صادقين ، طيبين ، مخلصين !

***

فردريك : لسنا مخلصين الا لأنفسنا ..

وإذ يغيبان عن المسرح ، تبقى ربة القصر وحدها مستغرقة فى التأمل ، ثم تنادى « هوجو » ، فتؤكد له انه انما يحب « ديانا » ، ويحبها منذ أول يوم رآها فيه . ويقبل فى تلك الاثناء « باتريس » ، فيتحرش بالشاب ـ منفذا تعليماته ـ ولكن « هوجو » يضيق به فيتماسكان .. على ان باتريس يلمح « ليدى انديا » مقبلة ، فيهيب بهوجو أن يتظاهرا بأنهما كانا يتمازحان .

ليدى انديا : أتعرف ماجرى يا باتريس ؟.. لقد تلقيت حديثا تليفونيا من باريس ، بأن ميسرشمان قد جن ، فهو يبيع كل أسهمه فى لندن ونيويورك وباريس ، ويقضى على نفسه بالافلاس !

ويسرع باتريس الى الخروج ليتصل بوكلاء مخدوميه ،

فيخبرهم — بوصفه سكرتيره — بتعديل التعليمات، وبالتوقف عن البيع . وتفد « ديانا » اذ ذاك ، لتخبر « هوجو » بأن أباها سيغدو فقيرا فى خلال ست ساعات .

هوجو : اذن ، فتزوجى فردريك ، اذ انه غنى !

ديانا : لست أريده ، ولا هو يريدنى .. انظر ، انه هناك فى المتنزه مع المغامرة الصغيرة ! .. أأنت الذى علمتها كيف تعثر على زوج غنى فى ليلة واحدة ؟ علمنى أنا الاخرى ، فانى الآن بحاجة الى زوج غنى !

يهم بالخروج ، فتستوقفه عمته ، ولكنه يقول : «سأبحث عن فردريك ، فان ديانا قد أفلست ، والشرف يدعوه الى أن يتخذها زوجة ! » .. وتقبل « كابولا » مع أم «ايزابيل» ، يتبعهما « رومينفيل » ، وقد استبد بهم الانفعال . فقد قرر الاخير أن يتزوج « ايزابيل » . ولكن مدام ديميرمورت تنبئه بأن الفرصة قد فاتته .. ويلج المكان — اذ ذاك — فردريك مع ايزابيل .

فردريك : لابد أننى كنت مجنونا ياعمتى .. اننى لم أعد أحب « ديانا » !

ايزابيل : كيف غاب عنى أن فردريك هو الذى أحببت من البداية ؟

مدام ديميرمورت (تلتفت الى ديانا) : ليبحث أحد عن هوجو ، فقد أشقى هذه الفتاة أكثر مما ينبغى .. لا تحزنى يا فتاتى ، فانه يحبك ! **(تلمح هوجو يسير فى الخارج ، ليبرح القصر)** الحق به ياجوشوا ، وأحضره الى هنا !

ديانا : ولكن ، هبى انه لا يحبنى ؟

مدام ديميرمورت : مستحيل ، فلا بد لـكل شىء من أن ينتهى نهاية سعيدة .

جوشوا (عائدا) : لقد أبى أن يأتى ، وأعطانى هذه الرسالة لك ! **(تأمره بأن يقرأها عليها)** « أما وقـد أصبحت ديانا فقيرة ، فقد أيقنت من أننى احبها ، ولسوف اتزوجهـا . فسليها ان تلحق بى فى المتنزه » !

وتخرج « ديانا » ، ثم يلج ميسرشمان فى ثياب متواضعة، ليستأذن ربة القصر فى الرحيل ، قائلا انه سيبدأ حياته من جديد ، حائكا للثياب فى (كراكاو) . فتحتضنه ليدى انديا قائلة : « يا لحبيبى العظيم ! .. لسوف أتبعك حافية الى أعماق سيبريا ! » .. وتسألها ربة القصر أن تدفع مقعدها الى الخارج ، فتغـادران المكان . ويبقى « ميسرشمان » وحيدا ، فلا يلبث « جوشوا » أن يقبل حاملا اليه برقية ، ما ان يقرأها ، حتى يتنهد ..

ميسرشمان : ليس من السهل على المرء أن يقود نفسه للافلاس .. لقد ظنوا انها كانت مناورة فى البورصة ، فاذا قيمة أسهمى ترتفع ، واذا بى أصبح أغنى مما كنت مرتين !

وتسدل الستار



نساء ومآس فى ساحة العدالة

الغانية الخطرة !

للكاتب والمؤرخ الفرنسى : " روجيه ريجى "

عزيزى القارىء :

ما أشبه المرأة الجاحدة ، ذات النفس الشريرة ، بالحية الرقطاء .. شكلها مزخرف جميل ، وملمسها ناعم ، ولكن سمها فاتك !

وبطلة هذه القصة لم تكن فذة الجمال ، ولكنها كانت صارخة الفتنة ، عارمة الاغراء .. ولم يكن أحد يدرى من أين جاءت ، ولا كيف نشأت ، برغم انها كانت نجما متألقا فى سماء البلاط الانجليزى .. كل الذى عرف عنها، هو أن النحس كان يصيب كل من تصطفيه لنفسها من العشاق ، فلا يلبث ان يموت !

ولم يجرؤ أحد على ان يرتاب فيها ، ولا ان يوجه اليها اتهاما ..

ولكن ، لندع « روجيه ريجى » يروى لك القصة بطريقته ، فى هذه الحلقة من حلقات «نساء ومآس فى ساحة العدالة » ، التى قدم لك « كتابى » بعضها فى اعداد سابقة ، والتى جمعها الكاتب من سجلات المحاكم فى مختلف العصور ..

غريب فى عاصمة الانجليز

• **استغرق** « سانت اندريه » فى تأمل سحر الطبيعة وفتنتها ، وقد جلس فى مقدمة الزورق متراخيا فى كسل مستعذب .. كان الربيع يبتسم فى سماء (لندن) ، العاصمة الانجليزية الدائمة العبوس والتجهم .. وعلى صفحة (التيمز) ، انطلقت الزوارق خفافا بطلاب النزهة وعشاق

الطبيعة . وما كان الشاب الفرنسى « سانت اندريه » قد ذهب الى لندن ليكون من هؤلاء أو اولئك ، ولكنه زارها لأمر أهم ،وقد فرغ مبكرا ـ فى ذلك اليوم ـ من المطالب اليومية التى كانت تقتضيها مهمته هناك ، وأوشك ان يغزوه ذلك الشعور الموحش الذى يستبد بالغريب اذا ما خلا الى نفسه دون أنيس ، وراوده الملل ..

وكان « سانت اندريه » قد وصل الى لندن قبل خمسة عشر يوما ـ خلال شهر مايو من سنة ١٦٦٧ ـ ولما تبرح اذهان الانجليز بعد ، ذكرى الحريق المروع الذى كان قد انطلق معربدا فى عاصمتهم ، فى العام السابق ..

وكان الشاب فى حوالى العشرين من عمره ، مليحا ، ممشوق القوام ، انيقا ، أوتى خصال علية القوم وان لم يكن ينتمى الى طبقتهم . اذ انه لم يكن سوى ابن أخ لتاجر باريسى ، وقد جاء موفدا من لدن عمه لعقد صفقة كبيرة .

يفتقد اللهو فى لندن الحزينة

• **ومع** ان الفرنسى الشاب كان أهلا للمهمة التى وكلت اليه ، الا انه ـ ككل شاب ـ كان تواقا الى شىء من اللهو والمرح . ولكن العاصمة الانجليزية كانت بعيدة كل البعد عن المرح واللهو .. فهى لم تكد تتخلص من وباء الطاعون الذى استشرى فيها ـ فى سنة ١٦٦٥ ـ حتى فوجئت بالحريق فى سنة ١٦٦٦ .. ولم تكد تفيق من النكبة ، حتى نشب القتال بين الاسطول الانجليزى والاسطول الهولندى .. ومن

الصحيح أن الحاشية الملكية كانت مغرقة فى مجونها ، الا أن الشاب الفرنسى لم يكن يملك ان يشاركها سهراتها .. ومن الصحيح — كذلك — ان الطبقة الوسطى كانت تحاول الفرار من الواقع البغيض ، بالانغماس فى ألوان من اللهو .. بيد أن هذه كانت جميعا ألوانا مصطنعة متكلفة ، لم ترق للشاب فعافتها نفسه .

ولم يبق من سبيل الى الترفيه عن نفسه سوى أن ينطلق فى زورقه هذا ، على صفحة النهر ، يستجلى مفاتن الطبيعة ونفسه تهفو فى حنين الى مغامرة تجلو عنها صدأ السأم .. **الى فتاة لا تكون سهلة المنال ، بل تكبده شيئا من الجرى والتفكير والانفعالات ، قبل ان يظفر بها !**

وأخرجه من تأملاته الشاردة ، حفيف زورق غير بعيد ، وصوت مجدافيه وهما تلتقيان بصفحة الماء فى تتابع رتيب ، فالتفت فى زهد ، وألقى على الزورق نظرة ..

حسناء .. على صفحة النهر

• **وفجأة** ، نشطت كل حواسه لتتركز على الزورق ، الذى كان يسير فى اتجاه يتعارض مع اتجاه زورقه . فلقد كانت فى ذلك الزورق امرأة وحيدة ، لا رجل معها . امرأة فى ثياب فخمة ، كشفت عن صدر مرمرى استقرت فوقه ماسة كبيرة مدلاة من قلادة أنيقة . ولعل قسمات وجهها لم تكن بارعة الجمال ، ولا كانت من الرقة والاتساق بالشكل الذى يصوره الفنانون فى لوحاتهم اذا ما أرادوا ان يمثلوا الحسن .. بيد

أن شعرها الذهبى الذى تطايرت خصلاته مع النسيم ، وعينيها السوداوين الواسعتين ، وقوامها اللدن الذى اضطجع فى الزورق فى تراخ غير متكلف .. كل هذه كانت تشع بفتنة وغواية كفيلتين بأن تهفوا بعقل أصلب الرجال قلبا .

لذلك فان « سانت اندريه » لم يقو على المقاومة ، فطلب الى نوتى زورقه ان يتبع تلك الغانية الوحيدة .. وحاول — فى أثناء ذلك — ان يسأله عنها ، فاذا بها ليست نكرة فى (لندن) .. **كانت تدعى « موللى سيبليس » ، وكانت نجما لامعا فى الاوساط الراقية، وقد اشتهرت بأنها تفتن الرجال، ولكنها لا تسلم أحدا زمامها.. بل ان الرجال كانوا يشتهونها ويخشونها فى آن واحد !**

ولم يكن النوتى يملك لهذا تعليلا ، مما أضفى على الغانية غلالة من الغموض ، جعلت الفرنسى الشاب يرى فى الجرى وراءها مغامرة من النوع الذى كان يصبو اليه !

تعارف ينتهى بدعوة

• **ولاح** بعد قليل أن « موللى سيبليس » قد فطنت الى متابعة الفرنسى لها — على صفحة النهر — فراحت تقوده حيث كان يحلو لها. .وهكذا لم تلبث ان انتهت به الى الضفة المقابلة لبرج لندن . واستحث «سانت اندريه» نوتى زورقه، فمس الزورقان البر معا ، فى لحظة واحدة . واذ ذاك قفز

الشاب الى الارض ، واسرع الى حافة زورق المرأة ، فمد اليها يده عارضا أن يعاونها على الهبوط ، فلم ترد يده .

وقال فى لباقة : «اغفرى لى جرأتى ياسيدتى، ولكن منظرك ملك على لبى ، فأنسانى كل عرف ، وأعجزنى عن ان أقاوم الرغبة فى أن أملى عينى منك عن كثب ! »

وأجابت الغانية فى تلطف مشوب باستعلاء وجلال : « لابأس، وانى لأغفر لك ، فان لهجتك تنم عن انك فرنسى ، وقد عرف الفرنسيون باللباقة والظرف . وانك لضيف على بلادنا ، وللضيف اكرامه . فاذا شئت ان نوثق التعارف ، فانى ليسرنى ان تتفضل فتصحبنى الى دارى، وان تتناول العشاء معى ! »

وخفق فؤاد الشاب ، ولكنه لم يتردد فى قبول دعوتها ..

وقادته « موللى سيبليس » الى منزل يطل على النهر ، غير بعيد من البقعة التى هبطا فيها ، وقد اوتى من جمال المنظر ما جعله يتيه على كافة المنازل المحيطة به .. على أن « سانت اندريه » لم يتمالك ان يحس بأن البيت كان — برغم جماله — أشبه بالسجن ، اذ كانت أبوابه الخارجية من حديد ثقيل ، وقد سد فراغ نوافذه بقضبان حديدية .. وخفق قلب الشاب — فى هذه المرة — بشعور غامض ، وقد خيل اليه انه مقبل على مغامرة مبهمة .

اذا انبثق الفجر .. رحل العاشق !

• **واستقبلتهما** سيدة عجوز ، وفتاة فى ريعان الصبا ،

بدا من الاحترام الذى ابديتاه للشابة انهما كانتا فى خدمتها . . واستطاع « سانت اندريه » ان يعرف ان اولاهما كانت تدعى « مسز توكر » ، وان الثانية كانت ابنتها ، وتنادى باسم « كيت » .

وجلس « سانت اندريه » مع « موللى » فى حجرة جلوس صغيرة ، بدا من أثاثها أنه قد اختير بعناية وذوق بديع ، ليحتفى فيها بالصفوة المقربة الى سيدة الدار .. وراحا يتحدثان وهما يتناولان بعض المشروبات الخفيفة ، المنعشة ، ريثما تعد المائدة .

ولم تدع المضيفة ضيفها ينصرف بعد العشاء ، بل راحا يسمران ويشربان .. وما لبث السمر ، والشراب ، وهدوء الليل ، والخلوة ، والشباب ، ان تفاعلت بعضها مع بعض ..

وعند ما انساب أول خيط من ضياء الفجر ، ايقظت موللى ضيفها ، وأهابت به : « يجب ان تنصرف الآن .. اسرع !»

ولم يملك « سانت اندريه » سوى ان يطيع رغبة فاتنته، فبادر الى الانصراف . وما ان بلغ باب الدار ، حتى ألفى « مسز توكر » تقف فى كامل ثيابها ، ترتقب هبوطه لتشيعه الى الخارج .

وعجب الشاب للأمر . وزاده عجبا ان تذكر النظرات التى راحت العجوز ترمقه بها فى الليلة السالفة .. كانت نظراتها مشوبة بعطف غريب ، لم ير له داعيا .. برثاء واشفاق دهش لهما ، ثم لم يلبث ان كذب حدسه ، وعلل نفسه بأنه

أخطأ التفسير . ولكنه ـ وهو منصرف فى الفجر ـ لمح على محياها امارات رثاء حزين، لم يستطع ان يتعامى عنه فى هذه المرة !

بين الهوى والهواجس

• وألفى نفسه يتجه اليها ، ثم يسألها : « هلا تفضلت فأنبأتنى : من تكون موللى سيبليس فى الواقع ؟ .. أهى متزوجة ؟ » .. ولكن العجوز هزت رأسها فى صمت ، دون ان تجيب . وخطر له أن يدس فى يدها جنيها ، عسى أن يفك عقدة لسانها ، ولكنها ردت الجنيه قائلة فى همس : **« لست أملك أن اقول لك شيئا . ولكنى أرجو أن تأخذ بنصحى ايها الاجنبى .. اننى أستحلفك بحق السماء ان لا تعود ثانية الى هذا البيت اطلاقا ! »**

وأثار النصح دهشة « سانت اندريه » وقلقه ، بيد انه لم يكد يبرح الدار ، حتى نسى ذلك فى غمرة ذكريات الليلة السالفة .. ذكريات المتعة التى كان عبيرها لا يزال عالقا بشفتيه . فلأول مرة فى حياته ، وجد نفسه محبوبا لوجه الحب .. وكانت التى أحبته حسناء هى اكثر من عرفهن من بنات حواء اغراء وفتنة !

واندفع فى هذا الهوى بكل نفسه وعواطفه .. ولم يكن يعكر عليه هناءته سوى انه كان عند انصرافه ـ فى فجر كل يوم ـ يجد « مسز توكر » فى انتظاره لتشيعه ، وفى عينيها

ذلك الرثاء الحزين .. الرثاء الذى حاول ان يعرف كنهه وسره ، لولا أن العجوز ظلت على صمتها ..

وكان يذكر - فى كل مرة - ذلك النصح الذى أزجته اليه العجوز اثر الليلة الاولى . وشيئا فشيئا ، أخذ هذا النصح يثير قلقه وتوجسه، حتى انتهى به الامر الى أن عقد عزمه - فى اصرار - على أن يعرف حقيقة الامر ، مهما يكلفه ذلك .

يشترى السر بغرام جديد !

• **وفى** ذات يوم ، تعمد أن يذهب الى منزل «موللى» مبكرا عن موعده المعتاد .. ووجد الابواب الحديدية مغلقة .

وكانت « كيت » هى التى فتحت له الابواب ، فقد كانت أمها متغيبة ، و «موللى» خارج الدار هى الاخرى . وما كان « سانت اندريه » ليبغى - فى الواقع - ظروفا خيرا من هذه ..

ورأى ان الفتاة لن تكون أقل من أمها اصرارا على الصمت، ففكر فى خطة اخرى يستدرجها بها الى الحديث . **وما كانت هذه الخطة لتتطلب شيئا من التضحية أو الاكراه . فقد كانت « كيت » فى بهاء الصبا ، ذات قسمات بديعة ، وشفتين أشهى من ثمار الكرز .**

لذلك بادر قائلا : « لقد تعمدت أن آتى مبكرا ، على أمل أن لا اجد مس سيبليس يا كيت ، وقد حقق الحظ رغبتى!» .. وتطلعت اليه الفتاة فى شىء من الدهشة ، ولكنه استطرد قائلا : « الواقع اننى جئت من اجلك انت ! »

وراح يغرق الفتاة بفيض من الغزل المشبوب ، والعواطف الحارة ، فسرعان ما لان قلبها وهى الساذجة الصغيرة .. وفى غرفتها الخاصة ــ بالطابق الثانى من المنزل ــ أخذ الشاب يستدرج « كيت » ، حتى أفضت له بما عرفت من أمها ، التى كانت تعيش على مقربة من « موللى » منذ حداثتها .

الموت نصيب كل عشيق !

• **ولدت** «موللى سيبليس» لاسرة فقيرة ، عديدة الافراد ، فى (ايرلندا) . ومن ثم فقد فرحت الاسرة يوم استطاعت أن تلحق الفتاة ــ وهى فى الخامسة عشرة من عمرها ــ بالخدمة فى قصر أحد سادة المنطقة .

وسرعان ما قدر للخادم الصغيرة ان تغدو خليلة لوصيف سيد القصر .. وبسم الحظ لها ــ مرة أخرى ــ فرآها السيد ، ولم يلبث ان استأثر بها دون وصيفه !

وكان السيد رجلا مسنا ، أعزب ، واسع الثراء . وقد أحب الفتاة فى شغف الشيخ الذى يحاول التشبث بأذيال الشباب ، وأخذ يغدق عليها عنايته واهتمامه ، حتى حولها من خادم وضيعة الاصل ، أمية جاهلة ، الى سيدة متعلمة راقية ، تجيد الغناء والموسيقى ، وتحذق أساليب الفتنة والدلال ، وتتقن أصول الظهور فى المجتمعات .. على انها لم تبد مهارة فى شىء قدر مهارتها فى لعب الورق .. وكان الحظ يلازمها على طول الخط !

ولعل السيد كان على استعداد لان يتزوج منها ، لولا أن الاجل لم يمهله .. لم يمهله ولو ريثما يتخذ من التدابير ما يكفل لها حياة طيبة !

وحرص الوصيف ـ بعد ذلك ـ على ان يفرض سلطانه عليها من جديد ، وان يستغل فتنتها ومهارتها فى لعب الورق .. ولكنه لم ينعم بذلك طويلا ، اذ وافاه أجله بغتة ، فلحق بسيده !

وعثر أحد ثراة الانجليز على «موللى» فتعلق بها ، وحملها معه الى لندن ، حيث قدمها الى ارقى المجتمعات ، واستطاع أن يدفع بها الى أوساط الحاشية .. حاشية الملك تشارلس الثانى الذى كان مغرقا فى حب « الليدى كاسلمين » ، فكانت غرامياته قدوة لاتباعه. **ولم يلبث عشيق «موللى» الانجليزى أن قضى نحبه بغتة ، بعد ليلة قضاها فى احضانها .. وتركها بعد أن وطد مكانتها بين الطبقة الراقية .**

وتوالت مغامرات الفتاة .. مغامرات قصيرة الاجل، عابرة. ثم تعلق بها ضابط عاش معها فترة من الزمن ولم يلبث أن اختفى فى ظروف غامضة .. وحظيت «موللى» بعده بعشيق آخر ، ولكنه كان أسعد حظا من سابقيه ، اذ انه سرعان ما قطع علاقاته بها ليتزوج . ولكن عروسه لم تلبث أن أصيبت بمرض حار الاطباء فى كنهه .. ثم ماتت .

للمرة الثانية : اهرب من وجهها !

• **والى** هنا لم يرتب أحد فى أمر الفانية .. كل ما كان

القوم يأخذونه عليها هو أنها كانت مصدر نحس على عشاقها ، وانها كانت بارعة فى المقامرة ، لا يخذلها الحظ أبدا .

وهتفت « كيت » فى ضراعة ، بعد أن روت للشاب الفرنسى كل هذا : « أرأيت ؟ ! .. ان هذه المرأة شؤم على كل من يعشقها ، فهلا أشفقت على شبابك ، وفررت من وجهها ؟ ! » .. عين النصيحة التى سمعها « سانت اندريه » من « مسز توكر » . ولكنه اقتنع ـ فى هذه المرة ـ بأن الغموض الذى كان يحيط بموللى سيبليس أعمق مما تصور ، وأن الامعان فى مغامرته معها ، من شأنه أن يعرضه لاخطار قد تودى بحياته هو الآخر . ومن ثم فقد عول على أن يبتعد عن طريقها .. ان يبتعد تماما ! .. أن يعود الى فرنسا ، بعد اذ لم يبق ما يستدعى اطالة المكث فى انجلترا .

وودع « كيت » أرق وداع ، ثم هبط سلم الدار وهو معتزم ان تكون تلك آخر مرة .. **على انه لم يكد يبلغ البهو ، حتى وجد نفسه أمام « موللى » وجها لوجه .. وكانت مفاجاة غير مرتقبة !**

وسألته الغانية فى صوت أجش ، ينضح بالشك : « ما الذى كنت تفعله فى الطابق الاعلى ؟ » .. وارتبك الشاب ، بيد انه سرعان ما تمالك نفسه ، وقال متلعثما : « لقد وصلت مبكرا ، فلم أجدك .. وثقل الانتظار على نفسى ، فصعدت الى الطابق الأعلى ، لأسرح البصر خلال نوافذه الى النهر ، واستجلى مناظر الطبيعة ! »

سحر الموسيقى .. وخمر الشفاه

• **ولم** تبد الغانية أية دهشة ، لا ولم تكذبه.. حتى عندما لمحت ذيل ثوب «كيت» وهى تقف متوارية ـ فى أعلى السلم ـ اثر وداعها اياه . بل انها ابتسمت فى وجه الشاب ، وقالت فى لطف : « لكم أنا مغتبطة بقدومك مبكرا ، فتعال اسمعك شيئا من الموسيقى ، ريثما تعد المائدة ! »

وكانت بارعه فى عزفها ، حتى لقد انسابت الالحان فى أذنى « سانت اندريه » أشبه بسحر مسكوب ، فراح يسبح فى طوفانه هانئا ، منتشيا .. وما لبث العشاء ان أعد ، فانتقل مع الغانية الى المائدة ، ووقفت « مسز توكر » و « كيت » فى خدمتهما .

وراحت « موللى » تبدى من صنوف الحفاوة والتلطف ، مالم يعهده الشاب منها فى الليالى السالفة . وكانت مرحة أيما مرح ، مسرفة فى الدلال الى درجة تهفو بالعقل ..

أما « سانت اندريه » ، فقد خامره شعور بالقلق لم يدر مأتاه ، فبدا مشتت البال فى بداية السهرة ، ولكن شفتى « موللى » لم تلبثا أن أذاقتاه من رحيقهما خمرا ، فثمل واستسلم !

نبيذ ذهبى عجيب

• **واذ** خلا اليها وخلت اليه ـ بعد العشاء ، وبعد ان صرفت الخادمين ـ عاود «سانت اندريه» شىء من توجسه ، فرمقته الغانية بنظرة ثاقبة ، كأنما أرادت بها أن تنفذ الى

اعماق نفسه ، ثم قالت : « الحق يا حبيبى ، انك لست الليلة ذلك العاشق اللطيف، اللبق، الذى عهدته .. ما الذى يشغلك عنى ؟ .. ان لدى ـ لحسن الحظ ـ ما يرد اليك مرحك وطلاقة لسانك ، وبراعتك فى الحب والغزل ! »

ونهضت الى خزانة فتحتها بمفتاح كانت تحتفظ به ، واخرجت منها قنينة بدا فيها سائل ذهبى براق . فملأت للشاب كأسا منها ، وهى تقول : « هذا نبيذ من الجزر النائية ..تذوقه تجد له مفعولا عجبا ! »

وكان النبيذ عجيبا حقا، فقد ارسل الدماءفى عروق«سانت اندريه» حارة حامية ، وبدد من ذهنه كل الهواجس، وحمله على أجنحة المرح والهوى ..

ولم تكد اولى خيوط الفجر التالى تلوح ، حتى دوت فى البيت صرخات جزعة .. وخفت الخادم العجوز وابنتها الى مخدع مولاتهما ، فاذا الشاب الفرنسى مسجى فى الفراش بلا حراك ، وقد فارقته الحياة !

أخيرا .. استيقظ ضميرها !

• **كان** من الواضح أن المكانة التى اكتسبتها « موللى سيبليس » فى بلاط ساده الانحلال والفساد ، هى السر فى أن العدالة أغمضت عينيها عن الاحداث الغامضة التى كانت تحدث فى مخدع تلك الغانية الرهيبة .. فما كان النحس الذى لازم عددا من عشاق « موللى » ليقبل على علاته ، لولا ذلك .

ولكن العاشق المنحوس ـ فى هذه المرة ـ كان من رعايا لويس الرابع عشر . فما ان علم السفير الفرنسى بوفاة « سانت اندريه » حتى ساورته الشكوك ، وراح يلح على « تشارلس الثانى » بوجوب التحقيق فى الامر .

وأجرى التحقيق فعلا .. وكانت « مسز توكر » وابنتها أول من وجه اليهم المحقق اهتمامه ، ولكنهما لاذتا بالصمت ازاء ماضى مخدومتهما ، وأعربتا عن جهلهما بما كان يدور فى مخدعها . بيد أن اصرارهما لم يلبث أن تداعى ، فأفضتا بكل ما كانتا تعرفان .

والقى القبض على « مولل ى » ، فلم تبد اكتراثا ، واستسلمت للسجن صامتة . ولكنها لم تمكث على هذا الصمت طويلا ، اذ طرأ عليها تغير غريب ، بدد استهتارها وعدم اكتراثها. ولعل ضميرها قد استيقظ أخيرا ، فعرضت أن تعترف بكل شىء .. واستمع اليها المحقق مذهولا !

تنتقم لعزة انوثتها !

• **لقد** كان بوسع « موللى » أن تعيش مع سيد القصر الايرلندى فى هناء الى أن يوافيه أجله الطبيعى .. وكان من المحتمل أن يتزوجها ذلك الكهل المفتون ـ فى تلك الاثناء ـ أو أن يوصى لها بشىء من ثروته ـ على الاقل ـ عندما يموت، لولا أمر واحد .. ذلك هو ان الحب كان من طرف واحد .. فهى لم تحب السيد الكهل يوما !

ولقد أثارها أن تجد نفسها مضطرة الى أن تكون مطية

له ، فى سبيل ان تحظى بحياة رغدة . **وكانت ككل فتاة فى تلك السن المبكرة ــ سن الخامسة عشرة ــ تصبو الى شخص يحبها من أجل الحب ذاته، وتحبه فتهبه أعز مفاتنها عن طيب خاطر ، وتكرس حياتها لاسعاده وارضائه ..** أما علاقتها بالسيد الشيخ ، فكانت تبديها فى عينى نفسها أشبه بفرسة فى حظائره ، يمتطيها عند ما يحلو له ذلك ، دون أن تملك من أمر نفسها شيئا .. بل ان الفرسة قد تملك ان تجمح وتلقى براكبها !

وخطر لموللى أن تجمح هى الاخرى ــ انتقاما لكرامة أنوثتها ــ فدست السم فى شراب السيد .. وعند ما أراد وصيفه أن يستغلها لأغراضه الجشعة ، ألحقته به ! .. وهكذا تفتحت أمامها أبواب الجريمة ، واستسهلت طريقها ، فقضت على عدد من العشاق الذين تبينت انهم يتصلوا بها بدافع من الحب الصحيح الصادق ، وانما كانوا يعتمدون على ثرواتهم ومراكزهم لارواء ظمأ شهواتهم الى مفاتن جسمها .

ولكن أمر الشاب الفرنسى كان يختلف ..

لقد تقدم اليها وهو لا يعرف عنها شيئا ، اذ فتنته جاذبيتها .. ولقد راقها منه جماله الفض ، فكان أول رجل أحبته . وكان من المحتمل ان تخلص له ، لولا .. « لولا أن تبينت أنه أنشأ صلة سرية مع خادمتى ، فثارت نفسى ، ولم اتمالك أن انتقم لعواطفى المهدرة ، ولحبى المغدور ! .. على

انني رأيت أن أرتوى منه للمرة الاخيرة ، قبل أن اورده حتفه .. فاسكرته ، وحملته على أن يقضى ليلته فى احضانى . وفى الفجر ، كانت الخمر والجهد قد نالا منه كل منال ، فنام اعياء .. واذ ذاك كتمت انفاسه حتى مات ، دون أن يقوى على المقاومة ! »

حاشية أضافها القدر الى القصة !

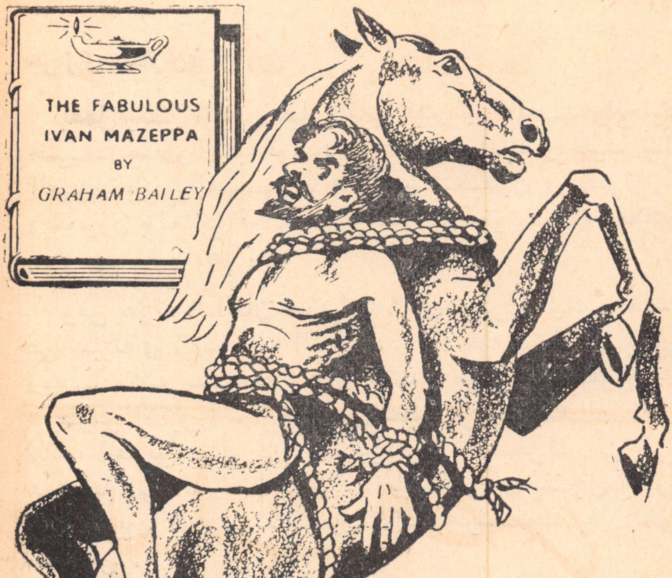
• **ازاء هذه الاعترافات الخطيرة ، لم تجد المحكمة مفرا** من ان تقضى بالاعدام على الغانيه التى كان الموت يسكن احضانها !

على ان « تشارلس الثانى » كان يحب الجمال والجرأة ، فلم يسعه قلبه على ان يوقع قرار الاعدام .. ولعله وجد من افراد الحاشيه من راح يضرع اليه ، ويشفع من أجل الغانيه ، فاذا به يبدل حكم الاعدام بالنفى الى امريكا .. التى كانت اذ ذاك تابعة للتاج ، ومنفى للمجرمين الذين يراد تخليص المجتمع الانجليزى منهم .

وكان من الممكن ان تنتهى القصة عند هـذا الحد ، لولا حاشية قصيرة أراد القدر أن يضيفها . ففى ظلام احدى الليالى ، تعرضت سفينة مسلحة للسفينة التى كانت تقل « موللى » عبر المحيط .. **وقفزت منهـا ثلة من الرجـال المدججين بالسلاح ، الذين توارت وجوههم خلف اقنعة ، فمنعوا البحارة من كل مقاومة ، ريثما نقلوا « موللى سيبليس » الى سفينتهم ، وانطلقوا بها !**

الى أين ؟ .. ولماذا ؟ .. وماذا بعد ذلك ؟

هذا ما لم يعرفه أحد الى اليوم ! .. انه السر الذى طواه الغيب بين جوانحه ، فظل مكانه شاغرا فى صفحات تاريخ الحب والجريمة .



الخائن

قصة رجل كانت حياته أشبه بالأساطير،
وكاد يُخلَّد بين أبطال القوزاق، لولا .. !

للكاتب الإنجليزى المعروف :

جراهام بيلى

عزيزى القارىء :

يعمل بعض الناس عمل الذين قدر لهم المجد والخلود ، حتى اذا صاروا قاب قوسين أو ادنى من المجد والخلود، سلط القدر عليهم أنفسهم ، فاذا بهم يتحبطون فى تصرفاتهم ، وينخرون بأفعالهم قوائم المكانة التى ارتفعوا اليها ، ويطفئون بأنفاسهم أضواءهم !

ومن هؤلاء **((ايفان مازيبا))** الذى نسوق اليك ملخصا عن سيرته فى الصفحات التالية .. فقد قدر لمازيبا ان يبلغ فى روسيا مكانة سامقة ، وأن يغدو من أقرب المقربين الى « بطرس الاكبر » .. ثم ، وفى لحظة من لحظات الضلال ، تنكب الطريق التى كان يسير فيها ، وانحرف الى طريق هوت به الى الدرك الأسفل .. وبدلا من أن يسجل التاريخ اسمه بين الابطال المكرمين ، اذا به يسجله بين الخونه الغادرين .

ولد فى أحضان الترف

منذ ثلاثة قرون من الزمن ، وفى أسرة عريقة ، ذات مكانة رفيعة فى (بولندا) ، ولد « ايفان مازيبا » ..

وكانت كل الظروف التى أحاطت بمولده ، تشير الى انه انما ولد ليعيش فى ترف باذخ ، وليحتل مكانه فى بلاط ملك بولندا .. وهذا ماحدث ، فى بداية حياة « مازيبا » .. فقد درس فى أرقى مدارس بلاده ، ثم أوفد الى الخارج حيث استكمل دراسته ، وطاف بمعظم دول أوربا .. **وعاد – فى**

النهاية ــ ليتبوأ المركز المعد له فى بلاط « جون كازيمير » ، ملك بولندا فى ذلك الحين .

وسارت حياة الفتى سهلة ناعمة .. مركز ، وجاه ، وثراء ، وحسن يفتن النساء ، ويمهد له الطريق الى خدور العذارى والزوجات على السواء ..

تحت رحمة زوج نائم

وكان خليقا بتيار حياته أن يمضى فى هذا الاتجاه ، وأن يخلد اسم « ايفان مازيبا » الى جانب اسمى « دون جوان » و « كازانوفا » ــ وغيرهما من العشاق ــ فى تاريخ الغرام ، لولا حادث مفاجىء ..

فقد قدر له أن يتدله ــ وهو بعد فى صدر شبابه ــ بسيدة بولندية رفيعة المقام .. **وأعماه الحب عن كل حذر اعتاده فى مغامراته السابقة ، فاذا بزوج السيدة يفاجئه معها ذات يوم ، فى ظروف كانت تدمغهما معا بالاثم والخطيئة ..**

وكان الزوج قاسيا ، ولكنه كان ــ فى الوقت ذاته ــ حكيما ، يحرص على اسمه واسم أسرته من أية شائبة .. وقد أدرك بحصافته ان اقدامه على قتل الشاب ، لن يكون أسلم من تسليمه الى السلطات ، والتشهير به . فان الفضيحة التى يثيرها كل من التصرفين ، كانت كفيلة بأن تصيب سمعته برشاش من الوحل ، اذا هى لم تمرغها فيه .

ولكن الغضب أثار فى نفسه أعتى ألوان القسوة ، فراح

يفكر فى خير وسيلة ينتقم بها لشرفه المغدور ، وكرامته المهانة .. وانتهى به التفكير الى قبول تذلل الآثمين واسترحاماتهما، ولكنه تشبث بشرط رأى انه كان كفيلا بأن يشفى بعض غليله ..

عاريا على ظهر جواد !

ونزل « مازيبا » عند حكم هذا الشرط .. فنقله الزوج – فى الخفاء – الى ضيعة له على الحدود الروسية .. **وهناك ، طرح « مازيبا » عاريا كما ولدته أمه ، على ظهر جواد برى لم تكن قد امتدت اليه يد الترويض بعد ..**

وربطت أطراف الشاب الى الجواد ربطا محكما ، ثم أثير الجواد حتى بلغ أقصى درجات الهياج الوحشى . وعند ذلك، أطلق ، فمرق كالسهم يجرى فى اقليم المراعى ، فى الاراضى الروسية ..

وأيقن الزوج الناقم ان غريمه خليق بأن يلقى – بفضل هذه الخطة – أبشع ميتة .. ولعل « مازيبا » نفسه كان موقنا بذلك ، عندما قبل شرط الزوج ، فما كان ليخطر ببال عاقل ان لمثل هذه المغامرة – على ظهر جواد وحشى – نتيجة أخرى ، ولو لم يكن « مازيبا » موثق الاطراف .. ولكن خيطا ضئيلا من الأمل هو الذى جعل الشاب يرتضى هذا الحل .. كان مقضيا عليه بالهلاك ، على أية حال .. ولكن مغامرة كهذه ، قد تلين قلب القدر فيساعده على النجاة !

والمقامر كثيرا ما يقدم على لعبة توحى الظروف كلها بأنها لن تعود عليه الا بالخسارة .. ولكنه ـ حين يكون موشكا على الافلاس ـ يؤثر ان يقدم عليها ، عسى أن تدور عجلة الحظ ناحيته فى اللحظة الاخيرة ..

وقد كان « مازيبا » يقامر على حياته !

بين فرسان القوزاق

ومن العسير على الذين لم يعرفوا الجياد البرية الوحشية، أن يتصوروا كيف استطاع « مازيبا » أن يتغلب على محاولات الجواد لكى يطرح عن ظهره الحمل الذى لم يكن له به عهد ، وهو الذى اعتاد أن يمضى حرا طليقا خفيفا ، فى الخلاء الرحب ..

وما كانت اقليم المراعى الروسية ، بأقل ضراوة من الجواد .. ومع ذلك ، فقد قدر لمازيبا أن يحتمل هذه الضراوة ، الى ان ساق الحظ عصبة من قوزاق منطقة (الدنيبر) الى أن يعترضوا طريق الجواد .. ومن ثم فانهم أنقذوا الشاب الذى كان موثقا على ظهره ..

وكان الاعياء ، وآلام الجراح والدم الذى نزفته .. كل هذه كانت قد أفقدت الشاب وعيه . فعنى به منقذوه ، وأقبلوا يمرضونه ويعالجون جراحه .. **واستطاع عنفوان شبابه أن يتغلب على عنفوان الحمى التى أنشبت فيه براثنها، فشفى فى النهاية ..**

وقبل القوم أن يأووه بينهم ، فعاش كواحد منهم .. وسرعان ما استرد عافيته ، فبدأ يكشف عن براعة فى استعمال الاسلحة ، وعن فروسية أذهلت القوم ، وهم الذين اعتادوا أن يقدروا الرجال بمدى براعتهم فى ركوب الخيل والقتال .

وهكذا لم يمض طويل وقت ، حتى أصبح فى طليعة المبرزين من أولئك القوزاقيين .

قائدا للفرسان ومقربا لدى الامبراطور

وابتسم القدر لايفان مازيبا من جديد .. فقد استطاع – أثناء زيارة قام بها لموسكو ، فى سنة ١٦٨٧ – ان يكسب اعجاب « فاسيلى جوليتسوين » ، عندما كان هذا الرجل فى أوج سلطاته .. اذ كان عشيقا للقيصرة « صوفيا » ، التى كانت وصية على العرش بعد وفاة زوجها . وقد جعله الحب المستشار الاول للعرش ، ووزير الخارجية .. وكانت خططه فى توسيع رقعة روسيا لا تقل طموحا وجرأة عن خطط « بطرس الاكبر » ، ومن ثم فقد كان همه منصرفا الى العمل على تقوية الروح العسكرية فى البلاد .. فان التوسع كان يقترن دائما بالحرب والفتح .

وقد تجلى اعجاب «جوليتسوين» بايفان مازيبا وفروسيته وبراعته فى أساليب الصراع واستخدام السلاح ، فى انه عينه قائدا لفرسان القوزاق .. وهو منصب كان ذا قيمة عظيمة .

وقد استطاع « مازيبا » ان يثبت انه كان جديرا به .. بل انه زاده قيمة وخطورة ، لاسيما حين تولى « بطرس الاكبر » مقاليد الحكم ، وشن حملات « آزوف » . فقد أبدى « مازيبا » فى هذه الحملات براعة ، وحمية ، وبلاء .. مما اكسبه ثقة القيصر الشاب « بطرس » ، فقربه اليه .

فى بلاط القياصرة

ولكن « ايفان مازيبا » لم يكتف بهذا الحد .. ففى حملة « فولهينيان » استطاع أن يبدى من أساليب الاعجاز ما اذاع صيته فى كل مكان ، لاسيما حين اضطلع بمهمة بناء قلعة « بيشيرسك » ..

وهكذا انقلب ثأر الزوج البولندى المخدوع ، الى جسر عبر عليه « مازيبا » الى المجد .. فلولا جموح الفرس الوحشى فى اقليم المراعى ، لكان من المحتمل أن يبقى عمره فى (بولندا) ، وأن يستسلم لترف الحاشية ، ونعيم الحياة فى البلاط .. وأن تكسبه هذه الحياة الناعمة طراوة وليونة !

على انه ، مع ذلك ، لم يحرم من حياة البلاط .. ولكن شتان ما بين بلاط « بطرس الاكبر » ـ قيصر روسيا وامبراطورها ـ وبلاط « جون كازيمير ملك (بولندا) ! .. وفى الفترات التى كان « ايفان » يبتعد فيها عن ميادين القتال ، كان ينعم بالتكريم ، ويشاطر كبار رجال بلاط « بطرس » أمجادهم ونفوذهم .. بل انه كان يحظى بالشرف

الرفيع ، الذى كان كثير من الروس يمسكون أنفاسهم مبهورين ، لمجرد أن يتصوروا – فى أحلامهم – الوصول اليه .. شرف الجلوس الى مائدة القيصر !

يتصل بأعداء روسيا فى الخفاء

وكانت هذه ذروة حظ « ايفان مازيبا » .. كانت نهاية الهدنة التى عقدها القدر معه ، منذ فاجأه زوج عشيقته البولندية فى مخدعها ..

وبانتهاء الهدنة ، بدأ القدر ينصب له الشراك ، ويقيم فى طريقه العراقيل .. فقد حدث ان دب الخلاف بين ملك السويد « شارل الثانى عشر » ، وقيصر روسيا .. وكان شارل شجاعا، جريئا ، ولكنه كان متهورا فى اندفاعه . وقد سول له الاندفاع أن يغير على الحدود الروسية .

ولم تكن السويد – اذ ذاك – بالدولة الصغير التى لا يقام لها وزن ، بل انها كانت من أقوى الدول الاوروبية .. فبادر بطرس الاكبر الى حشد قواته وارسالها الى (اوكرانيا) ، وأصدر أمره الى « ايفان مازيبا » بأن ينضم بفرسانه القوزاقيين الى تلك القوات عند وصولها ..

وكانت هذه هى الفرصة التى ترقبها القدر عندما بدأ يتنكر لمازيبا .. فقد أوحى الخوف من قوة السويد الى « مازيبا » بأن حربا كهذه لن تنجلى الا عن انكسار الروس . فعمد الى

الاتصال فى الخفاء بالكونت بيبر ــ الوزير الاول لشارل الثانى عشر ــ وساومه على ان يمكن للسويديين من النزول فى (اوكرانيا) ، وان يعرقل دخول القوات الروسية اليها !

يهرب من خشية القيصر

وكان من العجيب حقا أن يجحد « مازيبا » ــ وهو الذكى الاريب ــ أفضال روسيا ، وأنعم « بطرس الاكبر » عليه .. ولكن القدر كان قد سلط عليه الطمع ليضله ويعميه !

على ان غريما لمازيبا ــ يدعى « منشيكوف » ــ كان ينازعه مكانته ، ويراقبه ويحصى عليه زلاته ليوقع به .. وقد راودته الشكوك فى مسلك « مازيبا » ، فراح يسعى حتى أقنع بطرس الاكبر بشكوكه ، فلم يكن من هذا الا ان أقامه رئيسا على «مازيبا» ورقيبا عليه . **وفى هذا المنصب ، لم يأل جهدا فى جمع الأدلة التى تثبت خيانة قائد القوزاق وغدره .**

واذ فطن « مازيبا » الى ان سره قد كشف ، طار عقله ؛ اذ كان يدرك مدى بطش « بطرس الاكبر » وجبروته . وأوحى اليه الذعر بأن يهرب الى المراكز الامامية للجيش السويدى فى (هوركى) ، باقليم (سيفيريا) .

وبهذا الفرار ، دعم « مازيبا » الادلة التى أقيمت ضده !

يمحو قلعته عن الارض

ولم يكن « مازيبا » مغاليا فى خوفه من بطش بطرس

الاكبر ، فى الواقع . فان العاهل الروسى تلقى نبأ خيانة « مازيبا » بثورة جامحة .. كانت هذه الخيانة ضربة قاسية له ، وهو الذى وضع فى القائد القوزاقى ثقة لا حد لها .. ثم كان فرار « مازيبا » وانضمامه الى القوات السويدية ، التى كانت تغير على روسيا ، ضربة أخرى أشد وأعتى ..

وفى عنفوان الغضب ، لم يقتنع بطرس الاكبر بتعيين قائد لفرسان القوزاق يشغل مكان الخائن ، بل أصدر أوامره الى « منشيكوف » بأن يدمر (باتورين) — التى كانت المعقل الرئيسى لقيادة مازيبا — تدميرا ، حتى يمحوها عن وجه الارض !

وسارع « منشيكوف » الى تنفيذ الاوامر .. ولكن هذا لم يخفف من وطأة الغضب والكراهية اللذين اجتاحا القيصر ، وانتقلت عدواهما منه الى الأمة .. فأصدر المجمع المقدس فى (كييف) قرارا بحرمان « مازيبا » من الكنيسة ، جزاء خيانته وأعماله .. كما صنعت دمية بشكله ، أحرقت على مرأى من الشعب دليلا على النقمة !

يلجأ الى سلطان تركيا

أما « مازيبا » فقد حارب مع الفرسان الذين أخذهم معه — وكانوا حوالى ٨٠,٠٠٠ — فى صفوف السويديين ، ولكنه لم يستطع أن يكسب لهم انتصارا واحدا .. بل توالت هزائمهم . وكان نصيبه وفرسانه من هجمات الروس أكثر

من نصيب بقية فرق العدو ، حتى انه لم يكن قد بقى من فرسانه سوى ١٥٠٠ ، عندما حت الهزيمه الفاصله فى موقعة (بولتافا) .

وازاء هذا ، رأى « مازيبا » أن يتراجع مسرعا ، وأن يلوذ بالاراضى التركية .

ولم يقعد « بطرس » عن الرغبة فى الانتقام منه ، حتى لقد عرض على سلطان تركيا ثلاثمائة ألف بندقى — وهى عملة ذهبية كانت شائعة اذ ذاك فى المعاملات الدولية — مقابل رأس « مازيبا » .. ولكن السلطان أبى أن يسلم رجلا استجار به .

وهكذا قضى « ايفان مازيبا » على مجده بنفسه ، وقدر له — أخيرا — أن يموت فى (بندار) برومانيا ، فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٠٩ .. وقيل — فى بعض الروايات — انه قضى على حياته بيديه ، فى ساعة يأس وحسرة !

نحن فى ركب الأدب



ظهر فى المكتبة العربية

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب الذى نتناول فيه بالعرض بين الحين والآخر كتابا من الانتاج « العربى » الحديث ، قدمت لك فى اعداد سابقة :

ابو نواس : العقاد
الهوى والشباب: بشارة الخورى
هذا أو الطوفان : خالد محمد خالد
حوار العباقرة : محمد بديع الشريف
هؤلاء علمونى : سلامة موسى
محمد عبده : عثمان أمين
شهداء فى قبرص : ابراهيم موسى
سيكلوجية الضمير : محمد كامل النحاس
فن كتابة المسرحية : ايجرى
« الله يتجلى فى عصر العلم » .
« يوميات آدم وحواء » .

واليوم أقدم لك فى هذا الباب كتابا يكشف لك عن مفاخرنا القومية ، وتأثير العرب على حضارة الغرب .



تلخيص : ((كتابى))

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية

عزيزى القارىء :

كان من اهم ما سعى اليه الاستعمار الغربى فى بلادنا ، هو التعمية على كافة الامجاد العربيـة ، والعمـل على ان ننسى حقيقة ماضينا التليد .. حتى لقد جرؤ بعض المؤرخين الاجانب على تشويه الحقائق ، من اجل اغراض سياسيه.. ليربطوا بين بداوه العرب وهمجيه الهون والفاندال والقوط وليصفوا البداوة بأنها همجية .. فى حين ان وقائع التاريخ تثبت ان العرب لم يكونوا همجيين ولا متأخرين ، بل كانت لهم آداب رفيعة ، وتقاليد عريقة .. ثم لم يلبثوا ان نشروا حضارتهم ، عندما فتحوا الدنيا .. واكثر من هـذا ، ان اوربا كانت ترزح تحت ظلام متراكم ، حين حملوا اليهـا مشاعل الحضاره .. وان ما يتشدق به الاوربيون اليوم من ثقافة ومدنية ، انما يدينون بهما الى العرب بالذات ..

وفى الكتاب الذى نلخصه لك فى الصفحات التالية ، ينقل اليك الاستاذ « جلال مظهر » قصـة الحضـارة العربية ، وآثارها فى الحضارة الاوربية .. وقد حرص المؤلف على ان يستقى معلوماته ــ او بالأحرى ان يدعمها ــ بأقوال علماء الغـرب وفلاسـفته ومؤرخيه وكتابه .. ليكون كل هؤلاء شهودا على ما تدين به أقوامهم للعرب من مآثر ..

ولقد قدم الاسـتاذان « كمال الدين رفعت » و « سـعد عفرة » للكتاب بمقدمة أثبتا فيها ان حضارة العرب هى أطول الحضارات العالمية عمرا ، واعظمها اثرا فى المدنية الحديثة . وقد اتسمت هذه الحضارة بسمة متجانسة عرفت بها ، فهى حضارة لم ينفرد بتكوينها اهل بقعة معينة من بلاد العرب ، « وانما اشترك فى تكوينها المجموعة العربية التى انصبت

فى قالب واحد ، وجمعتهم مشاعر واحدة ، ولغة واحدة ، وآمال واحدة ، ظلت طوال الاعصر ، سواء أعاش العرب دولة موحدة ، ام دولا فرقتها احداث التاريخ .. »

والآن .. لننتقل الى الكتاب !

نشوء الحضارة العربية واسباب عظمتها

• **ظهر** فى حوض البحر المتوسط ـ قبل حضارة العرب ـ حضارتان كبيرتان ، هما : الحضارة المصرية القديمة ، والحضارة اليونانية .. وتدل شواهد التاريخ على ان اليونان تتلمذوا على علوم المصريين ، وتتلمذ العرب على علوم اليونان ، وتتلمذت اوربا على علوم العرب وآدابهم من منتصف القرن الثامن حتى منتصف القرن الثامن عشر أو نهايته .. بل ان العالم الغربى لا يزال ينهل من البحر اللامتناهى للشعر العربى القديم ..

فى منتصف القرن الثانى عشر ، تأسس نهائيا فى غربى اوربا الجوهر الحقيقى لمدينة حديثة . وكان هذا الجوهر يونانى ـ عربى ـ لاتينى بصورة قاطعة .. ولم يكن تغلب الفكر الغربى معناه طرح الافكار الشرقية واحلال افكار غربية محلها ، وانما كان ـ بالأحرى ـ استيعابا للافكار الشرقية . فالواقع أن الثقافات تقاربت تقاربا كبيرا ، وبخاصة الثقافتين الاسلامية والمسيحية ، فكون امتزاجهما وتداخلهما العمود الفقارى لأوربا الحديثة .

ولقد استولى العرب الاوائل على شعوب مختلفة اللغات والثقافات ، واستطاعوا ان يندمجوا فيها ، اذ قابلتهم برغبة ملحة فى استيعاب حضارتهم ومبادئهم ، فانصهروا فيها ، حتى نشأ شعور عنصرى جديد مستمد من الشعور العنصرى العربى ، باعتبار انه أصبح ملكا مشتركا للجميع . واذا اردنا ان نبحث كيف ان غزوهم لسوريا وفلسطين ، ثم لمصر ، قد ايقظ فى نفوسهم روح العلم والرغبة فى العمل على التقدم السريع بأنفسهم ، فلا بد لنا من أن نضع فى حسباننا استعدادهم الطبيعى لاستعمال ملكاتهم العقلية .. واذ كان لهم ادب رفيع فان بوسعنا ان ندرك ما استبد بنفسيتهم ـ عندما اختلطوا بثقافات الشعوب التى غزوها ـ من رغبة ملحة الى التعرف بهذه الثقافات .. فأصبح التعليم هو الاساس الأول للدولة العربية ، وتوطدت فيها اركان العلم ، وحظى العلماء بأعظم انواع التشريف .. ونشطت حركة الترجمة نشاطا لم يسبق له مثيل فى التاريخ .

وكان خلفاء ابى جعفر المنصور ـ الخليفة العباسى ـ يجمعون من حولهم اكثر الرجال ثقافة وعلما ، من الاقاليم التى دانت لسلطانهم .. وعملوا على ترجمة اعظم المؤلفات اليونانية الى العربية ، وشيدوا مؤسسات كبيرة للدراسة العمومية ، وجمعوا مكتبات غنية زاخرة ، واقاموا فى بغداد اكاديميات تناقش فى الموضوعات العويصة واسسوا المدرسة الفلكية الشهيرة .. وهكذا كان العرب ـ فى القرون

الوسطى ــ هم الممثلون للحضارة ، وهم الذين عملوا على تراجع الهمجية التى انتشرت فى اوربا .. ونهلوا من ينابيع الفلسفة اليونانية ، ولم يقتصروا على حفظ كنوز المعارف السابقة من الضياع ، بل أضافوا اليها وفتحوا طرقا جديدة نحو دراسة الطبيعة .

***

والمؤرخون والباحثون الذين يدرسون فكر القرون الوسطى ، لا يلبثون ان يجدوا ان أعظم الاعمال قيمة ، واكثرها أصالة ، واغزرها مادة ، كتبت بالعربية ، اذ كانت هذه اللغة ــ من منتصف القرن الثامن حتى نهاية الحادى عشر ــ لغة العلم ، حتى لقد كان ينبغى لمن شاء ان يلم بثقافة عصره ، وبأحدث صورها ، ان يتعلم اللغة العربية .

ويصف العلامة « ويل دورانت » الفكر العربى فى ذلك العصر ، بقوله : « كان التعليم عاما ، وبالمجان أو بنفقات بسيطة جدا يقدر على تحملها جميع الناس .. وكان الغرض من التعليم الابتدائى ينحصر فى تكوين شخصية الفرد ، أما التعليم الثانوى فمن اجل الحصول على المعرفة .. ولسنا نعرف بالضبط متى وضعت هذه المدارس تحت اشراف الحكومة وعلى نفقتها ...

« وكان طالب العلم يسافر من أحد أطراف الدولة الاسلامية ، الى الطرف الآخر ، ليتلقى الدرس على معلم

شهير .. واستطاعت هذه العالمية فى الآداب ان تجد السبيل ميسرا ..

« وعرف العرب صناعة الورق عندما اختلطوا بالصينيين ، بعد فتح سمرقند . وتأسست اول صناعة للورق فى بغداد سنة ٧٩٤ ميلادية .. ثم ادخل العرب هذه الصناعة ـ فيما بعد ـ الى اسبانيا وصقلية ، ومن ثم انتقلت الى ايطاليا وفرنسا . وكان ادخال هذا الاختراع سببا فى انتشار الكتب فى كل مكان .. ويدلنا اليعقوبى على انه كان فى زمانه (٨٩١ م) ، اكثر من مائة بائع للكتب (وراق) فى بغداد ... كما ألحق بأغلب الجوامع مكتبات عامة . وكانت فى بعض المدن مكتبات تضم كتبا قيمة يباح الاطلاع عليها للجميع .. ولما قوض المغول بغداد ، كان بها ست وثلاثون مكتبة عامة . أما المكتبات الخاصة فكانت لاتحصى .

« وكانت جميع مسالك العالم الاسلامى تعج برجال الدين والجغرافيين والمؤرخين الذين لا يحصيهم العد ، انتشروا فى الارض بحثا وراء المعرفة والحكمة ... ولقد استطاع العرب ان يستوعبوا كل ما كان عند الامم المغزوة من ثقافات .. »

ولقد صحب هذا التوسع الكبير نشاط فكرى لاعهد بمثله فى تاريخ الانسانية ، حتى لقد لاح بأن الناس فى العالم كله ـ من الخليفة الى أقل المواطنين ـ قد أصبحوا طلاب علم ، او من مناصريه على الاقل .. وكان هذا النشاط

الفكرى يرمى – مع المبادىء السامية التى قامت عليها أسس الدولة العربية – الى حماية جميع رعايا هذه الدولة ، بغض النظر عن معتقداتهم الدينية ، أو أجناسهم ، أو ألوانهم ، مما جعل منهم جميعا وحدة تهدف الى خدمة الانسانية ، وتعمل يدا واحدة على استكمال ارتقائها ..

اثر الفكر العربى فى الفكر الاوربى

• **كان** الذين يتذوقون العلم ودماثة الطبع – حتى فى عصر متقدم كالقرن العاشر – يتخذون طريقهم الى اسبانيا من جميع الاقطار المجاورة .. ولا نستطيع أن نذكر – قبل القرن الخامس العشر من الميلاد – عالما أوربيا ابتكر شيئا غير استنساخ كتب العرب ...

كان تأثير العرب فى الغرب عظيما للغاية ، لا نستطيع ان ندركه الا اذا تصورنا حالة أوربا حين ادخل العرب الحضارة اليها .. ففى القرنين التاسع والعاشر ، كانت الحضارة فى اسبانيا ساطعة وضاءة ، بينما كانت مراكز الثقافة فى الغرب ابراجا يسكنها نبلاء متوحشون يفخرون بأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة .. وعند ما ظهر فى اوربا اشخاص صمموا على ان يرفعوا عن كواهلهم اكفان الجهل والجهالة – فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر – يمموا شطر العرب ، الذين كانوا ائمة العلم بلا منازع .

وكان « اديلار » اول عالم اوربى بارز قدم من (باث بانجلترا) ، الى طليطلة .. ومن اسبانيا ذهب بتروس

الفرنسى الى انجلترا ، حيث اصبح طبيب الملك هنرى الاول ، ونشر هناك علوم المسلمين لأول مرة . وهذان العالمان عملا على ترجمة مؤلفات عربية فى الفلك والرياضيات، فى النصف الاول من القرن الثانى عشر .. ونهج كثيرون نهجهما ، فوفد من (كريمونا) على طليطلة « جيرار » الذى لمع فى ايطاليا سنة ١١١٤ ، والذى أصبح أعظم المترجمين عن العربية وأخصبهم انتاجا .. وتبعه الكثيرون . ولذلك فانه يعتبر الاب الحقيقى للحركة العربية فى اوربا ..

ومن الاندلس جاءت اول معرفة بمؤلفات ارسطو الكبيرة . ولكن المسلمين كانوا قد استخلصوا من العالم القديم شيئا كان ارسطو يفتقده ، برغم عبقريته .. ذلك هو العلم الرياضى والآلى . وعملوا بصبر وجهد على تنمية نمط التطور والتكييف العلمى ، الذى احتقره الاغريق فى أزهى عصورهم .. وعلى العموم ، كان العرب – فى القرون الوسطى – يمثلون الطراز الفكرى العلمى والحياة العلمية الصناعية التى تمثلها المانيا الحديثة ..

وكانت ترجمات كتب العرب على الاخص ، لا سيما العلمية منها ، المصدر الوحيد للتدريس فى جامعات اوربا زهاء خمسة قرون او ستة . ونستطيع ان نقول بأن تأثير العرب فى بعض العلوم – كعلم الطب – قد دام الى أيامنا هذه . فقد كانت كتب « ابن سينا » الطبية تدرس فى جامعة (مونبلييه) حتى أواخر القرن الثامن عشر ، وكان « ابن رشد » الحجة العظمى فى الفلسفة – فى جامعات

اوربا – منذ اوائل القرن الثالث عشر .. وكان كتاب «جامع الرياضيات» هو الاساس الذى اقام عليه « ليوناردو بيزانو » دروسه فى (بارى) ، فى القرون الوسطى .. وطاف رجال امثال « جروستست » – الذى عرف بأنه نور (اكسفورد) اللامع – بأوربا واسبانيا سعيا وراء مؤلفات الاغريق والعرب فى العلوم الرياضية والتجريبية ..

***

والرابطة القوية بين ادب الشرق الاسلامى وادب اوربا ، تقوم على اثباتها حقائق لا يتطرق اليها شك . فان الأساطير الهادفة والمؤلفات التى تجرى مجراها كانت ذات منزلة شعبية كبيرة فى القرون الوسطى .. وكان اول كتاب طبع فى انجلترا ، هو كتاب « حكم الفلاسفة وأقوالهم » . وهو ترجمة لمؤلف عربى كان قد ترجم قبل ذلك الى اللاتينية ثم الفرنسية . وطبعت « الف ليلة وليلة » ، فى القرن الثامن عشر ، ثلاثين طبعة على الاقل بالانجليزية والفرنسية ..

أما صلة العرب بجنوب فرنسا ، فى القرن الثامن – لاسيما بمقاطعة (بروفانس) التى نشأت فيها أصول الادب الاوربى – فثابتة بما لايدع مجالا للشك .. فعندما رأى عبد الرحمن الغافقى ان يتراجع صوب المقاطعات الجنوبية – امام شارل مارتل – تحالف الامراء المسيحيون مع العرب ليتخلصوا من جيش مارتل الذى أقبل على نهب البلاد .. حتى اذا استعاد العرب مكانتهم ، أقاموا بفرنسا قرنين من

الزمان ، اذ سلمهم حاكم (مرسيليا) مقاطعة (بروفانس) فى سنة ٧٣٧ م ، واستولوا على مقاطعة (آرل) . واستمرت اقامتهم فى (بروفانس) حتى نهاية القرن العاشر ، كما توغلوا - فى سنة ٩٣٥ م - فى (فاليه) و (سويسرا) .

وقد استقر بفرنسا نهائيا كثير من العرب ، اقاموا حول المدن التى استولى عليها ابناء جلدتهم .. واليهم ينسب ادخال صناعة السجاد الى (اوبيسون) ، وادخال كثير من الاساليب الزراعية الجديدة .. وفى مقاطعة (كروز) و (الألب) و (بشارونت) وبعض قرى لاند وروسيلون ولانجدفيه وبيارن ، نستطيع - حتى اليوم - ان نتعرف على سلالات العرب . ويمكن تمييزهم ببشراتهم البرنزية ، وشعرهم الفاحم ، وانوفهم المنسرية ، وعيونهم الثاقبة .. فقد عاشوا - فى تلك البقاع - فى جماعات صغيرة منفصلة تماما عن بقية السكان ، لا يختلطون الا ببعضهم بعضا ..

ويقول الاستاذ « جب » - فى كتاب « تراث الاسلام » - ان الصفات التى تميز شعر « التروبادور » فى جنوبى فرنسا ، ترجح افتراض تأثره بالنماذج العربية .. ويعزز العلامة « راندال » هذا الاتجاه فى تحديد نشأة شعر « التروبادور » .. ولم يحدث انتكاس فى هذا الرأى الا فى منتصف القرن التاسع عشر .. لأن اوربا كانت قد بدأت تتجه اتجاها فعليا الى استعمار الشرق .. فرأى نفر من المستعمرين الاوربيين ان هذا الاستعمار يجب ان يكون

مصحوبا بدعوة تهدف الى فصل الشرق عن ماضى حضارته ..

***

وبدأ الاهتمام واضحا ـ كذلك ـ بالاساطير والقصص الخيالية والروايات التى كانت تؤلف جزءا كبيرا من الادب العربى الرفيع .. فالى جانب الانتشار الشفهى للقصص العربى ـ فى القرن الرابع عشر ـ ترجمت مؤلفات عربية لروايات ألفت للتسلية ، وفضل القراء هذه الروايات الشرقية لأنها ـ فوق كل اعتبار ـ كانت تعبر عن خيال أغزر وهدف أقوم . وهكذا لعبت الاساطير العربية دورا كبيرا فى ادب القرون الوسطى وما تلاه من آداب اوربا ..

وفى الواقع ان تسلل المناهج الادبية العربية الى اوربا فى القرون الوسطى ، قد كون مظهرا موحدا لحركة أدبية عامة .. فقد تغلغلت جذور الفكر العربى ـ بصورة أو بأخرى ـ فى جميع آداب اوربا الناشئة ، مما مهد الطريق الى الطفرة الفكرية لعصر النهضة ...

ولقد أقام عصر النهضة حاجزا صد به موجة التأثير الشرقى ، ولكن الى حين .. فان الروح الرومانتيكية الاوربية لم تلبث ان احست باختناقها ، وراحت تنشد لها مخرجا .. واذ ذاك ـ وفى سنة ١٧٠٤ م ـ ظهرت ترجمة « جالاند » لقصة « ألف ليلة وليلة » .. وتكونت فى الاذهان الصورة الرومانتيكية للشرق ، فأثارت خيال الطبقات القارئة

بما أتسمت به من غموض ومن صور حية .. وبدأ كتاب غزيرو الانتاج يعملون على سد هذا النقص بترجمات منتحلة .. واتجه الادب فى القرن الثامن عشرنحو الشرق، وراحت الخيالية الرومانتيكية ـ التى سادت ذلك العصر ـ تصوره مليئا بشخصيات غريبة تلبس اردية الخلفاء والجن .. غير ان تلك الروايات الخيالية الشرقية المنتحلة ، سقطت تحت سوط « هاملتون » و « بوب » و « جولد سميث » ، بعد أن تركت أثرها فى الادب ..

وليس من المغالاة فى شىء أن « ألف ليلة وليلة » قد زودت الكتاب الشعبيين بالمفتاح الذى أخرجهم من الازمة التى رانت على الادبين الانجليزى والفرنسى ، وانه لولاها لما كانت هناك قصة « روبنسن كروزو » ، وربما « رحلات جليفر » كذلك .. ولقد سعى البعض الى أصل لروبنسن كروزو فى الرواية الخيالية الفلسفية « حى بن يقظان » لابن طفيل (١) .. كما ثبت ان « دانتى » استقى « الكوميديا الالهية » من قصة المعراج وتفسيرات المفكرين والمتفوقين العرب (٢) .

وكم من دلائل تبين عمق الاثر الذى طبعته الرواية الشرقية فى عقلية القرن الثامن عشر . فان الحركة الرومانتيكية فى القرون الوسطى كانت انتاجا عربيا محضا ..

---

(١) سبق أن أوضح « كتابى » هذا ، حين لخص « حى بن يقظان » فى عدده الخامس .

(٢) فى مقدمة تلخيص «جحيم دانتى» ـ فى العدد ١٣ من «كتابى» ـ أورد المحرر اشارة الى ذلك ، فى التحليل الذى قدم به للملخص .

علم العرب وأثره فى نشأة الحياة العلمية فى أوربا

◆ **يقول** « همبولدت » ان علينا ان ننظر الى العرب باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية ، آخذين هذه التسمية من مفهومنا للعلوم الطبيعية فى يومنا هذا .

وكان العرب أول من نهض للأخذ بأسلوب الدراسة العميقة التحليلية لقوى الطبيعة ، وللتغيرات التى تسير عليها هذه القوى ، وللمواد الاولية التى يمكن تحليلها بالطرق العلمية لادخالها فى مركبات جديدة ، وذلك من طريق استحداث الظاهرة من صنعة الانسان .. اى التجربة . وقد أدى النصر الذى أحرزته الطريقة العربية الى نشوء الحياة الصناعية فى اوربا ..

وتعتبر الكيمياء فى صورتها العلمية ابتكارا حققه العرب .. وكان اليونان قد اقتصروا على التجربة الصناعية والفروض المبهمة، بينما أدخل العرب على هذا العلم الملاحظات الدقيقة ، والتجربة العلمية المتقنة ، واخترعوا « الانبيق » ، وحللوا كيمياويا عددا هائلا من المواد ، وألفوا مباحث فى الاحجار الكريمة ، وفرقوا بين الحوامض والقلويات .. وكان « موسى بن جعفر الكوفى » ـ فى القرن الثامن ـ أول من أفصح عن حامض النتريك والماء الملكى ، وأوجد حلا للمشكلة الكيماوية الكبرى فى الحصول على الذهب بشكل سائل .. والى « الرازى » يرجع الوصف الاول فى تركيب وخصائص حامض الكبريتيك الذى حصل عليه بنفس الطريقة التى تستعمل حاليا ..

وتمكن « جابر بن حيان » ـ الذى ثبت انه عاش فى القرن العاشر ـ من ان يحقق تقدما كبيرا فى علم الكيمياء ، من الناحيتين : النظرية والعملية .. وكانت كل مؤلفاته تترجم الى اللاتينية فور الحصول عليها .. ولا تزال اللغات الاوربية تحفل بكثير من الكلمات الكيماوية العربية ..

كذلك كان علم الصيدلة اختراع عربى أصيل . فقد عنى العرب بتطبيق علم الكيمياء على الطب نظريا وعمليا ، من ناحية شرح وظائف الجسم الانسانى وعلاج أمراضه . ومكنتهم معرفتهم بعالم النبات من أن يضيفوا شروحا كثيرة الى الألفى نبات الموجودة فى كتاب النبات لديسقوريدوس ، وأن يضمنوا كتبهم فى العقاقير كثيرا من النباتات الطبية التى كان اليونان يجهلونها . لذلك كان العرب بحق هم الذين وضعوا أساس الصيدلة الكيماوية . وعنهم وصلت الى أوربا الوصفات الجوهرية التى انتشرت ـ فيما بعد ـ عن طريق مدرسة سالرنو .

ولقد هيأت الصيدلة والمادة الطبية ـ وهما الدعامتان الاوليان فى فن العلاج ـ السبيل الى دراسة علم النبات والكيمياء .. وحتى القرن السابع عشر ، كان بعض العلماء ـ فى فرنسا وألمانيا ـ يتمسكون بعلم العرب . بينما استمر الصراع فى ايطاليا بين النازعين الى اليونانية والنازعين الى العربية حتى نشأت الطريقة الحديثة ففضت النزاع . وبوجه عام ، ظل علم الصيدلة العربى حتى بداية القرن التاسع عشر ..

***

كذلك كان العرب رواد العالم وأساتذته فى فن الطب والتطبيب وتنظيم المستشفيات .. واذا دخلت كلية الطب فى جامعة باريس، وجدت صورة أبى بكر محمد الرازى معلقة هناك . فهو - بلا ريب - أعظم كتاب المدرسة الجديدة ، وواحد من أعظم الاطباء فى كل العصور .. وكانت مقالته - فى الجدرى والحصبة - عملا فذا ، بل أول بحث محكم فى الامراض المعدية ، وأول مجهود فنى للتفرقة بين المرضين .. ومن أشهر كتبه « المنصورى » ، وهو فى عشرة أجزاء ، وقد ترجم الى اللاتينية فى القرن الثانى عشر ..

وتجد الى جانب صورة « الرازى » - فى كلية الطب بجامعة باريس - صورة « أبو على الحسين بن سينا » ، الذى كتب تعاليمه العظمى فى مؤلفين مستفيضين : « كتاب الشفا » ، وهو موسوعة من ثمانية عشر جزءا فى الرياضة ، والطبيعة وما وراء الطبيعة، والدين، والاقتصاد، والسياسة، والموسيقى .. والآخر كتاب « القانون فى الطب » ، وهو مبحث عظيم فى علم الصحة والصيدلة وعلم وظائف الاعضاء والعلاج ، مع استطرادات متفرقة فى الفلسفة .. وهذا المؤلف تركيز لتراث المعارف الطبية اليونانية ، مضافا اليها الزيادات العربية .. وقد ترجم - هو الآخر - الى اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، وظل يطبع ويدرس حتى نهاية القرن السابع عشر .

وألف « ابن الجزار » - سنة ١٠٠٩ م - أعظم مؤلفاته ،

« زاد المسافر » ، فترجم فى عصر متقدم الى اللاتينية ، وشاع بين أطباء القرون الوسطى فى أوربا لأنه وضع شروحا وافية للامراض الباطنية ، ولكن مترجمه « قسطنطين » نسبه الى نفسه ، كما أثبتت تحقيقات « ميير هوف » فى كتابه « تراث الاسلام » .

وكتب كل من على بن عيسى البغدادى (القرن العاشر) ، وعمار الموصلى ، مبحثين فى طب العيون ترجما الى اللاتينية، فكانا مرجعين حتى النصف الاول من القرن الثامن عشر .. وتدين الجراحة لابى مروان بن عبد الملك بن زهر (القرن الثانى عشر) بأول فكرة عن جراحة الجهاز التنفسى ، وبتعليماته الدقيقة عن انتقال العظام وعن الكسور . وقد ترجمت كتبه الى اللاتينية ، ولكن الترجمات لم تكن كاملة .

أما الجراحة العملية ، فلم تكن متخلفة عن الطب .. وهى تدين للعرب بأساليب تقدمية أساسية ، وكانت مؤلفاتهم فى هذا الميدان متونا أساسية للتعليم فى كليات الطب الاوربية الى عهد قريب .. وقد وضع « ابو القاسم القرطبى » - المتوفى سنة ١٠١٣ م - كتاب « التصريف » ، وتكلم فى الفصل الاخير منه عن الجراحة ، وأورد أوصافا وافية وصورا لادواتها، مما كان له أكبر الاثر فى وضع حجر الاساس للجراحة فى أوربا .. ويقول العالم الفزيولوجى « هالر » ان كتب أبى القاسم كانت المصدر الذى نهل منه جميع الجراحين الذين ظهروا بعد القرن الرابع عشر .

أما المستشفيات الاكاديمية فانتشرت فى العالم العربى ..

وعرفت المستشفيات المتنقلة فى القرن الحادى عشر .. وكان أضخم مستشفى فى القرون الوسطى هو « مستشفى المنصور » بالقاهرة . وكانت به أقسام منفصلة للامراض المختلفة ، وأخرى للناقهين ، ومعامل ، ومستوصفات ، وعيادات خارجية ، ومطابخ لتقديم الغذاء على الطريقة العلمية ، وحمامات ، ومكتبة ، وجامع ، وقاعة محاضرات ، وأماكن خاصة لمرضى العقل . وكان العلاج بالمجان للجميع . بل ان الناقه كان يوهب عند مغادرته المستشفى مبلغا من المال حتى لا يضطر للعمل أثناء نقاهته . وكان المصابون بالارق يرفه عنهم بالموسيقى الخفيفة أو برواة القصص أو بكتب التاريخ .

***

وفى الرياضيات وعلم الفلك ، أنجز العرب أعمالا علمية عظيمة . فجعلوا الجبر علما وطوروه ، ووضعوا أسس الهندسة التحليلية ، وكانوا ـ بلا منازع ـ مؤسسى حساب المثلثات الكروية والمسطحة ، فى عصر كان الغرب يحارب فيه الهمجية بيأس ..

ويقول « سيديو » ، فى « تاريخ العرب العام » :

« ادعينا طويلا ان العرب لم يفعلوا شيئا أكثر من نقل علوم اليونان . وليس بوسعنا أن نؤيد منهجا مبهما كهذا ، دون أن نتهم بالجهل والخطأ . فنحن لاندين فقط بالعرفان لمدرسة بغداد ، لحفظها مؤلفات علماء الاسكندرية الهامة ،

ولكنا ندين لها كذلك بالقاعدة التي وضعتها لحساب المثلثات الكروية . وقد أدخل العرب على هذا العلم خطوط التماس في قواعد الحساب ، واستبدلوا بالطرق القديمة حلولا أسهل ، كانت الاساس الذى بنى عليه حساب المثلثات الحديث .. ونحن نعلم ان علماء اسبانيا العرب — من الفلكيين — سبقوا كوبرنيكوس وكبلر فى استنباط الكيفية التى تفسر بها حركة الكواكب السيارة .. اما القاهرة ، فيقول ابن النبضى (١٠٤٠ م) ان مكتبتها كانت تضم ستة آلاف كتاب فى الرياضيات والفلك فقط ، وكرتين جغرافيتين ، احداهما من صنع عبد الرحمن الصوفى ، والاخرى من صنع بطليموس السكندرى .. » .

ولم يقتصر محمد بن موسى الخوارزمى (٧٨٠ — ٨٥٠م) على تهذيب مبادىء علم الجبر التى وضعها « ديوفانتس » اليونانى فى الاسكندرية — حوالى القرن الثالث أو الرابع الميلادى — والاضافة اليها ، بل كتب فى الارقام الهندية والتقاويم ، وصاغ أقدم جداول لحساب المثلثات عرفها التاريخ ، واشترك مع ٩٩ عالما فى اعداد موسوعة جغرافية للمأمون . أما مؤلفه « حساب التكامل والمقابلة » فقد اتخذ متنا تعليميا أساسيا فى جامعات أوربا حتى القرن السادس عشر .. وقد حرف اسم « الخوارزمى » — فى ترجمة الكتاب الى اللاتينية — الى « الغورتمى » ، وهذا هو أصل كلمة « لوغاريتم » .

أما « ابو الوفا » — الذى يرن اسمه فى المناقشات

الاكاديمية فى اوربا ـ فقد تكفل بتصحيح اخطاء الفلكيين السابقين .. وكشف عن قواعد الميل والقواطع التى كان علماء الهندسة الرياضية العرب يستعملونها كما تستعمل اليوم فى حساب المثلثات .. وكم من عالم عربى فتحوا فتوحا بينة فى الرياضيات ، والفلك والارصاد .. وقد صاغ ابو الريحان محمد بن احمد البيرونى جداول فلكية للسلطان مسعود ، أكد بها ان الارض كروية ، وأن جميع الاجسام تنجذب نحو مركز الارض ، كما أشار الى دورة الارض حول نفسها مرة فى كل يوم ، وحول الشمس مرة فى كل سنة .. وحدد الثقل النوعى للمواد ، وبين الاوانى المستطرقة ..

ويقول العلامة جون درابر ، فى كتابه « تطور اوربا الفكرى » : « ينبغى على أن أنعى على الطريقة المنظمة التى تحايل بها الادب الغربى ليخفى عن الانظار مآثر المسلمين العلمية علينا .. لقد ترك العربى طابعه الفكرى فى اوربا منذ زمن طويل .. فقد طبع فكره على قبة السماء ، بطريقة لا تمحى ، تتمثل فى أسماء النجوم المختلفة .. » . فما زالت كثير من النجوم تعرف فى اللغات الاوربية بأسمائها العربية .

***

وفى مجال علم التاريخ وفلسفته ، لنا ان نذكر « ابن خلدون » ، فقد كان مؤرخا وسياسيا وعالما ومعلما اجتماعيا واقتصاديا ، درس احوال البشر بعمق ، وكان مشوقا الى تحليل ماضى الانسان ليدرك حاضره ومستقبله .. وقد

سمى ابن خلدون بأبى – أو أحد آباء – فلسفة التاريخ ، وبأبى علم الاجتماع .. وكان تفسيره للتاريخ تفسيرا اجتماعيا .

اما « المسعودى » ، فكان رحالة ومؤرخا وجغرافيا وفيلسوفا .. وفى كتابه « مروج الذهب ومعادن الجواهر » وصف زلزال سنة ٩٥٥ م ، ومياه البحر الميت ، وعلل كثيرا من الظاهرات الجيولوجية .. وفى كتاب « التنبيه » عرض للتطور ، فقال : « ان آخر افق الجماد متصل بأول افق النبات ، وآخر افق النبات متصل بأول افق الحيوان ، وآخر افق الحيوان متصل بأول افق الانسان » .. وتكلم « عثمان بن بحر الجاحظ » فى نفس النظرية ، مؤيدا أن التطور حدث مبتدئا من المعدن الى النبات ، ومن النبات الى الحيوان ، ومن الحيوان الى الانسان .

وفى علم الجغرافية ورثت اوربا عن العرب مؤلفات هامة .. وقد علمت كتب الادريسى اوربا الجغرافية فى القرون الوسطى . ومن الخرائط التى رسمها خريطة بها البحيرات الاستوائية ، منابع النيل التى لم يكتشفها الاوربيون الا منذ وقت قريب ..

وفى الزراعة حلل ابن العوام الاشبيلى (١١٩٠ م) انواع التربة والاسمدة ، وطرق زراعة النباتات ، واعراض وعلاج الامراض النباتية .. ولا يوجد فى اسبانيا اليوم من وسائل للرى غير ما أتمه العرب فيها ..

والواقع ان الفنون التطبيقية تطورت بسرعة فى (ما بين

النهرين) ومصر ، حيث ابتكرت مؤلفات فى اعمال الرى والقنوات المائية والمواصلات .. اما علم الميكانيكا النظرى فأثار اهتماما كبيرا ، ووضعت كثير من المؤلفات فى رفع الماء ، وفى السواقى المائية ، وفى التوازن ، وفى الساعات المائية .. وقد عرف العرب — على التأكيد — الساعات ذات الاثقال التى تختلف اختلافا كبيرا عن الساعات المائية ..

كذلك استعمل المصريون — فى القرن الثامن — ملح البارود ، لدفع القذائف بصوت قاصف ، كما استعمل البارودفى معركة بحرية خاضها ملك تونس ضد أمير اشبيليه فى القرن الحادى عشر،واستعمله العرب فى حصار جبل طارق سنة ١٣٠٨ . ويقول الدكتور جوستاف لوبون : « نسب الكتاب زمنا طويلا اختراع البارود الى روجر بيكون . ولكنه — فى الحقيقة — لم يفعل شيئا اكثر من اقتباس مركبات سابقة .. وهذا اختراع نشأ — ولا ريب — عند العرب ، كغيره من المركبات الكيماوية جميعا فى القرون الوسطى .. ولقد استعمل العرب الاسلحة النارية قبل ان يستعملها المسيحيون بزمن طويل .. »

الفن العربى فى كل مكان

• **من** قصر الحمراء فى اسبانيا الى تاج محل فى الهند ، فاق الفن الاسلامى كل حدود الزمان والمكان .. فشيد العرب من المبانى والآثار ما لم تشيده امة اخرى ، وابتكروا وحسنوا فنونا بلغت عندهم حد الكمال ، حتى لقد بهرت

الشرق والغرب ، واصبحت المدرسة العربية منهلا لأوربا عدة قرون ..

وفى اسبانيا لم يكد العرب يثبتون أقدامهم ، حتى بدأوا عهدا وضاء مشرقا . وكانت قصور الخلفاء فخمة ، انيقة ، رائعة الزخارف، تطل على حدائق البرتقال شرفات من الرخام المصقول ، وتفضى اليها ساحات تتخللها شلالات ومنعزلات للراحة ظليلة وارفة .. واجنحة للخلوة والاستجمام ، مقبية بالزجاج الملون المنقوش بماء الذهب ، تتدفق من فوقها ينابيع مائية . اما الارضية والحوائط فمن الفسيفساء الرائع .. هنا نافورة يتدفق منها الزئبق السائل برذاذ فضى متلألئ ، وهناك غرف يدلف اليها الهواء البارد ــ اثناء الصيف ــ من حدائق الزهور ، عن طريق ابراج للتهوية ، والهواء الساخن ــ اثناء الشتاء ــ من خلال انابيب ارضية .. وكان قصر الحمراء ــ بغرناطة ــ اعظم القصور التى بناها امراء العرب فى اسبانيا ، من حيث الفخامة والحسن والزخرفة ..

كذلك يدين الغرب للعرب بالنقش القليل البروز ، والتوريق (ارابسك) .. ولقد اعترف كثير من الغربيين الذين درسوا فن العمارة فى القرون الوسطى ، بالاثر الفعال الذى بثه العرب فى فن العمارة عندهم .. ويقول باتيه : « نحن لا نستطيع أن نضع موضع الشك ان المهندسين المعمارين الفرنسيين ــ فى القرنين ١١ و ١٢ ــ قد استمدوا من الفن الشرقى تفاصيل عناصر هامة .. الم تجد على أثر

مسيحى من أقدس المبانى النصرانية ــ وهو كاتدرائية (بى) ــ بابا عليه نقوش بالخط العربى ؟ »

كذلك انتقل الفن العربى الى اوربا عن طريق اتصال الغرب بالشرق اثناء الحملات الصليبية .. اما المنسوجات العربية فكان لها شأن عظيم فى اوربا ، وتشهد بذلك الاسماء التى عرفت بها كثير من المنسوجات فى القرون الوسطى .. فهناك الحرير « الاطلسى » .. و « الموهير » وهو تحريف « مخير » ، وكان قماشا عربيا يصنع من شعر الماعز .. و « الموسولين » نسبة الى الموصل ، و «الفستيان» تحريفا للفسطاط ..

وعن طريق العرب ايضا ، عرفت اوربا المرايا الزجاجية ذات الغشاء المعدنى ..

ظهر حديثا..

شاعر اندلسى وجائزة عالمية (٢٧٠ صفحة)

بقلم : عباس محمود العقاد

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين

دراسة « جائزة عالمية » يستحقها من تختارهم هيئة من الهيئات المرشحة لوظيفتها ، لن تخطىء ان تعطينا صورة من تاريخ الادب الحديث ، تستحق النظر ، وتستحق ان يدار عليها موضوع كتاب . . وهذا هو ماحدا بالاستاذ الكبير «عباس محمود العقاد » ، الى ان يضع كتابا عن « جون رامون خيمنيز » الشاعر الاندلسى الذى فاز بجائزة نوبل سنة ١٩٦٠ . .

وفى هذا الكتاب ، يعرض لنا الاستاذ العقاد ــ بما عرف عنه من سعة البحث ودقة التمحيص ــ دراسة وافية لمنشأ وصية نوبل ، واسس اختيار من تمنح لهم . ثم انتقل الى الادب الاسبانى ، والى « جوان رامون خيمنيز » وأشهر مؤلفاته وقصائده .

قصص من الصين (٤٠٠ صفحة)

تأليف : بيرل بك ــ ترجمة : صبحى وصفى

الناشر : دار القلم

للشرق دائما غموض ساحر ، يستهوى عقول الغربيين . .

ولقد استغل كثير من الكتاب شغف القراء بهذا السحر والغموض ، لكى يصبوا سموم الدعاية السيئة التى تخدم أغراض الاستعمار ، ثم يلفوها فى غلالة من جو الشرق .

ولكن « بيرل بك » حرصت — فى معظم قصصها — على أن تكون مادتها مأخوذة من حقيقة الواقع ، لترسم صورا دقيقة ، صادقة ، لنفوس أهل الصين ، وأهل الصين بالذات ، حيث عاشت ردحا طويلا من عمرها ..

وهذه المجموعة التى نشرتها « دار القلم » ، كحلقة فى سلسلة « الالف كتاب » التى تصدرها وزارة التربية بالاقليم الجنوبى ، بمعاونة المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب — ضمت عشر قصص تعتبر من خير النماذج لما كتبته الكاتبة الامريكية الجنسية ، الصينية الروح والشعور ..

كيف نفهم الاطفال

سلسلة دراسات سيكلوجية تصدرها : مكتبة النهضة المصرية ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين

اعرف مشكلاتك (١٢٢ صفحة)

تأليف : هـ . هـ . ريمز ، وسى . ج . هاكيت

ترجمة : الدكتور محمود عماد الدين اسماعيل

قدمنا لك فى عدد سابق بعض حلقات هذه السلسلة القيمة ، التى يشرف عليها الدكتور عبد العزيز القوصى ، المندوب الدائم للجمهورية العربية المتحدة بهيئة « اليونيسكو » .

وحلقة اليوم اساسها ان مفتاح الاتزان النفسى هو أن يعرف الانسان مشكلاته ، ويحددها ، ويتبينها .. ولكن الانسان يحتاج ــ للوصول الى هذا الكشف ــ الى من يعاونه .

وهذا الكتاب ــ الذى وضعه اثنان من علماء النفس ــ يعاونك فعلا ، مستندا الى الواقع ، والى المبادىء العلمية السليمة .. فهو ليس مجرد عرض نظريات .

مساعدة الاطفال على حل مشكلاتهم (١٢٤ صفحة)

تأليف : روث سترانج ــ ترجمة : الاستاذ صلاح الدين لطفى

وهذه حلقة ثانية من السلسلة ذاتها .. وهى تتناول اساليب تدريب الطفل على حل مختلف المشكلات التى يقابلها منذ مولده .. وهذا التدريب خليق بأن يبدأ فى البيت ، ويستمر فى المدرسة ، وان يعلم الطفل الصبر ، والبحث ، وربط الاسباب بالنتائج ..

والاساس فى هذا هو أن يعاون الكبار صغارهم فيما يصادفون من مشكلات ، فلا يحلونها لهم ، وانما يساعدونهم على أن يحلوها بأنفسم .

كيف تستمتع بوقت الفراغ (١٠٦ صفحات)

تأليف : وليم مننجز ــ ترجمة : الدكتور محمد احمد الغنام

ليس شغل وقت الفراغ هو مجرد ملء لوقت نضيق به ، ولا ندرى كيف ننفقه ، وانما هو تجديد للصحة والشباب ، واعداد لمستقبل الحياة . ومن هنا ندرك أهمية الموضوع الذى يعالجه هذا الكتاب . فهو يرشدنا الى سبيل الاسلوب

الايجابى فى استغلال الفراغ ، بحيث نفيد من هذا الوقت .

وشغل الفراغ ليس بالامر السهل ، بل انه يحتاج الى تخطيط من جانب الفرد ، ومن جانب المجتمع .. ويحتاج الى وقاية الناس من طغيان المتع السلبية القائمة على الاكثار من المأكل والمشرب والاغتيال وما الى ذلك .. ويحتاج الى عناية الارتباط القوى بصحة العالم افراده وجماعاته ، وبالصحة النفسية بوجه خاص ..

ومن هنا نلمس قيمة هذا الكتاب الذى ألفه الدكتور « وليم مننجر » ، وهو اخصائى يعمل فى اكبر مؤسسة علاجية نفسية فى العالم .. مؤسسة مننجر ، التى انشأها ابوه ، والتى تعتبر كعبة المعالجين النفسيين من كافة الارجاء .

« اليكترا »

تأليف : جان جيرودو ـ ترجمة الدكتور محمد غلاب

الناشر : الشركة التعاونية للطباعة والنشر

شارع فى اوربا ـ فيما بين الحربين العالميتين الاولى و الثانية ـ اتجاه الى الاخذ من الاحداث التاريخية الهامة ، موضوعات للمسرحيات ، لا لتصوير تلك الاحداث ، وانما لتتخذ منها وسيلة لمهاجمة حدث جديد .. وكانت من هذا النوع من المسرحيات : « رجل الاقدار » لبرنارد شو ، و « جوديث » و «اليكترا» لجان جيرودو .. وقد قدم لك « كتابى » ملخصات وافية للثلاث ، فى اعداده السابقة ..

واليوم ، تقدم لنا سلسلة « روائع المسرح العالمى ـ التى تصدر باشراف وزارة الثقافة والارشاد القومى ـ ترجمة كاملة لمسرحية « اليكترا » ، التى أخذ « جان جيرودو »

فكرتها عن موضوع يونانى مشهور ، يعد استئنافا لموضوع « افجينيا » ، الذى بنى « راسين » حوله مسرحية صدرت بترجمتها حلقة من سلسلة « الالف كتاب » ..

وليس من شك فى انه عمل جليل حقا ان تقبل الهيئات المشرفة على الثقافة فى الدولة - كوزارتى الثقافة والارشاد ، والتربية والتعليم - على تقديم مسرحيات دسمة من هذا النوع .. ويزيد هذا المجهود قيمة ، أن يتولى كاتب بحاثة تقديم كل حلقة بدراسة ممتعة للأدب المسرحى ، وللمؤلف ، ولنهجه فى التأليف .. كما فعل الاستاذ درينى خشبة فى « اليكترا » .

دستور الام : طفلك حتى الحادية عشرة (٢٨٠ صفحة)

تأليف : الدكتور بنجامين سبوك - ترجمة : محمد المعلم

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين

الطفل هو نواة الاسرة ، والاسرة هى نواة المجتمع . ولكى ننشىء مجتمعا سليما ، لا بد لنا من ان نتعلم كيف ننشىء أطفالنا اصحاء ، سليمين من كافة النواحى .. البدنية والنفسية .

وهذا الكتاب خير دستور يرشد الام الى العناية الصحية والعقلية للطفل . وقد ترجم الى معظم لغات العالم ، وبيع منه فى انجلترا - وحدها - أكثر من خمسة ملايين نسخة ، وظهرت منه عشرات الطبعات المتلاحقة . فما من سؤال يجول بخاطر الام الا وفى الكتاب جوابه الواضح المبسط .

وقد تناول الجزء الاول من الكتاب ، ارشادات للام التى تستعد لاستقبال طفلها ، وارشادات خاصة بالرضاعة

والتغذية اليومية .. ومراقبة الطفل فى نموه ، وفى التسنين، وفى الضطام ..

والجزء الثانى ــ وهو الذى بين ايدينا الآن ــ يتناول الطفل فى عامه الثانى، واصول تغذيته وواجباته، واساليب معاملته فى لعبه ونومه ونظام حياته اليومية .. والامور التى تقلقه وتضايقه ، واسباب بعض العادات التى يكتسبها كالمعاكسة واللجلجة وقضم الاظافر ..

وهكذا يتدرج المؤلف حتى يصل الى الطفل فيما بين السادسة والحادية عشرة من عمره ، واثر المجلات والراديو والسينما عليه ، ومشكلات اندماجه فى الحياة الخارجية ، ومتاعبه فى المدرسة .. ثم ينتقل الى طور البلوغ ومشاكله ..

والواقع أن الكتاب يقدم خير المساعدات للآباء والامهات على تنشئة جيل أصح وأفضل وأقوى .

تاريخ سورية و لبنان و فلسطين (جزءان)

تأليف : الدكتور فيليب حتى ـ ترجمة : الدكتور كمال اليازجى

الناشر : دار الثقافة ببيروت ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين

منذ شهرين ، قدم الدكتور « فيليب حتى » ــ مؤلف هذا الكتاب ــ لزيارة الدول العربية ، على رأس بعثة امريكية عربية للصداقة .. وهذه البعثة حلقة من حلقات الجهود التى يبذلها الدكتور حتى من أجل وطنه الاول وعروبته ، فى وطنه الثانى امريكا . فهو من مواليد لبنان ، سنة ١٨٨٦ . وقد نال الدكتوراه من جامعة « كولمبيا » وتولى عدة مناصب جامعية هناك ، الى أن عين رئيسا لقسم الدراسات الشرقية بجامعة برنستون وقد ظل فى منصبه

حتى سنة ١٩٥٤ ، اذ أحيل الى التقاعد ، فتفرغ لخدمة العروبة ، وتعريف الامريكيين بالبلاد العربية وامجادها .

والكتاب الذى نعرضه هنا ، حلقة أخرى من حلقات جهوده فى هذا السبيل .. فان سورية مهد ديانتين ، من الديانات الموحدة الثلاث ، وهى موطن كثير من الأنبياء والرسل والفلاسفة والأدباء .

وهذا الكتاب سجل الحضارة السورية منذ فجر التاريخ حتى ذلك اليوم . فى الجزء الاول استعرض المؤلف تاريخ سورية فى العصر الحجرى وظهور الساميين القدماء من أموريين ويهود وآراميين وعلاقتهم بالمصريين وغيرهم . وفيه بحث لعهود الفرس والروم والنزاع بين الثقافتين السورية والرومانية وتحليل لتاريخ الدول العربية قبل الاسلام ، من نبطية وتدمرية وغسانية ، وينتهى عند فتح الشام .

من روائع الادب الشعبى

التفاحة الذهبية .. و حواديت أخرى (٨٠ صفحة)

عريس لابنتى و قصص أخرى (١٥٢ صفحة)

تاليف : طلعت السمرى

كثيرا ما تمر بحياة الشعوب أحداث تشكل صورا وذكريات يتناقلها الابناء عن الأباء على مر السنين .. كما تمر بحياة الشعوب أحداث جسام ، لا تلبث – على مر الزمن – أن تؤلف ذكريات اسطورية فى تراثها الشعبى ، وتصبح جزءا من « الفولكلور » .. وكما أن لدينا فى تراثنا الادبى الشعبى شخصيات – مثل « الظاهر بيبرس » ، و «الشاطر حسن»

و « أبى زيد الهلالى » ـ نجد فى الاداب الشعبية الاوربية شخصيات مقابلة ، مثل «روبن هود» و « وليم تل » .. الخ .

وقد جمع الاديب « طلعت السمرى » سبع حواديت من الآداب الشعبية ، امتازت بالطرافة والتلون ، وبأنها ـ ككل القصص الشعبى المتوارث ـ تحمل بين سطورها من المعانى والحكم والعظات ما يجعل للحواديت قيما أكثر من مجرد التسلية ..

وهذه « الحواديت » كانت الحلقة الاولى من سلسلة « من روائع الادب الشعبى » . وقد أعقبها « السمرى » بحلقة ثانية ، هى « عريس لابنتى .. و قصص أخرى » ، ضمنها قصصا انسانية لأحد عشر كاتبا امتازوا جميعا بأنهم نشأوا فى الريف ، ومن ثم فانهم يبنون قصصهم فى اطارات من صور الحياة اليومية فى الريف ، ويتخذون من شخصياته المتنوعة نماذج لهم ..

والحواديت والقصص ـ فى المجموعتين ـ من الادب البلغارى ..

تحفة العدد القادم من مطبوعات كتابى

يدخر لك مفاجأة طريفة ..

يبدو أن أسرة المرحوم « عزيز عيد » ، أسرة موهوبة بطبيعتها ..

• لقد كان « **عزيز عيد** » نابغة فى الاخراج المسرحى، وكان من الاعمدة التى قامت عليها نهضة المسرح العربى

• وتجلت مواهب زوجته « **فاطمة رشدى** » ، فى ميدان التمثيل .. فاستطاعت ان تثبت انها احدى نابغتين سادتا المسرح العربى من العنصر النسائى .. وكانت النابغة الثانية ، المرحومة « روز اليوسف »

• وورثت ابنتهما « **عزيزة عيد** » روح الفن المتأصلة عنهما .. ولكن نبوغها الفنى اتجه الى ناحية أخرى .. الى الرسم الذى تفوقت فيه تفوقا باهرا ..

.. **واليوم** ، تقدم لك « مطبوعات كتابى » فى عددها القادم ، عضوا آخر من هذه الاسرة ، اتجه نبوغه الى الأدب .. هى : **السيدة « جنيفييف عيد »**

وقد اختارت لك قصة رائعة ، جمعت فيها بين آثار البيئة المسرحية ، وبين ملكة التذوق الادبى الرفيع ..

ويكفى انها من شوامخ الكاتب الفرنسى الكبير « هنرى باتاى » .. عضو الاكاديمية الفرنسية

ترقب العدد القادم من « مطبوعات كتابى »



مؤسسة فن الطباعة